الفصل الثانى

obeikandl.com

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

مولخو

(الفصول الأربعة)

أثارت رواية "مولخو" (الفصول الأربعة) التى نشرت عام 1987 لـ"أ. ب. يهوشواع"[1] ردود فعل عديدة لدى الأدباء الإسرائيليين فور صدورها، وتم تفسيرها بوجهات نظر مختلفة ترتبط بالواقع السياسى لدولة إسرائيل تارة، وتبتعد عنه تماماً تارة أخرى، إلا أننا نرى أنها تصب فى الواقع السياسى والاجتماعى لدولة إسرائيل بصورة كبيرة للغاية، لا سيما أنها مليئة بالرموز والإشارات التى تنتقد هذا الواقع الذى خلّفته الصهيونية فى الواقع الإسرائيلى بكل مشاكله، وارتبطت ارتباطاً وثيقاً بموجة النقد التى بدأها الأدباء الإسرائيليون مع مطلع الثمانينيات من القرن العشرين ضد الصهيونية. وكان "يهوشواع" فى طليعة هؤلاء الأدباء الذين أمسكوا بدفة هذا الصراع ضد الصهيونية بعدما تفاقمت المشكلات والمعضلات الداخلية والخارجية للدولة، وبدأت عملية مراجعة شاملة ودقيقة لبرامج الصهيونية وأهدافها ونجاحاتها وإخفاقاتها.

ويرى أبراهام بلفان الناقد الإسرائيلى أن "يهوشواع" استمد أحداث هذه الرواية من الواقع حيث كتب يقول: "إن يهوشواع ذكر فى عدة لقاءات معه قصة تلك الصديقة المقربة لزوجته التى توفيت متأثرة بمرض السرطان بعد صراع معه امتد لسبع سنوات، وكانت قصتها هى خلفية لرواية (مولخو). وقد تابع يهوشواع بنفسه ذلك المرض والموت كصديق للأسرة. وكانت المرأة التى توفت من أصل هولندى، بينما كان زوجها من أصل ألمانى. وفى روايته، حوّل يهوشواع الزوجة إلى أصل ألمانى والزوج إلى أصل سفارادى. وهو ما يجعلنا ندقق فى ذلك الاختيار المتعمد، وهو أن يكون الزوج فى الرواية من أصل سفارادى. كما أنه من المستحيل ألا نميز ذلك التشابه الذى يربط بين أوصاف البطل الخارجية – "مولخو" ـ (عيناه، شعره، غير ذلك) وبين يهوشواع نفسه. فهناك تفاصيل كثيرة خاصة بالسيرة الذاتية لـ"مولخو" ترتبط بالمؤلف (هؤلاء السفارديم القدامى هم جيل خامس بالقدس، الطفولة فى القدس، الحياة فى حيفا، وغير ذلك"[2].

قصة الرواية (عرض مختصر):

تبدأ أحداث الرواية بوفاة زوجة "مولخو" فى الرابعة فجراً بعد معاناة مع مرض السرطان طوال سبع سنوات كاملة، اعتنى "مولخو" بها جيداً طوال هذه الفترة. وبعدها ترتبك بعض الأمور فى المنزل، حيث كان لـ"مولخو" ابنة فى الجيش وطالب فى الثانوية وطفل

(1) أبراهام بيت يهوشواع: "مولخو"، رواية، دار نشر هاكيبوتس همئوحاد، تل أبيب، 1987 (346 صفحة).
(2) أبراهام بلفان: "مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى" (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، دار نشر هاكيبوتس همئوحاد، تل أبيب، (ص174).

obeikandl.com

صغير، وتوصيه الجدة أم الزوجة المتوفاة بالزواج، وهنا تبدأ قصة البحث عن زوجة. وعلى مدار الرواية يلتقى "مولخو" بثلاث سيدات وطفلة تتمركز حولـهن قصة الرواية. فكانت "مريم" المستشـارة القانونية هى أول السيدات اللاتى التقى بهن "مولخو" عبر مجموعة من الأصـدقاء، وكانت أول المرشحات لـه للزواج، إلا أنه تجاهل هذا الأمر بسبب عقليتها الغربية التى تتشابه مع عقلية زوجته السابقة. ويسافر "مولخو" بعدها إلى باريس، ومن هناك يتجه إلى برلين ويلتقى بالمستشارة مرة أخرى ويقضى معها عدة أيام يذهب خلالـها بمفرده إلى حفلات الأوبرا التى تعود عليها خلال فترة زواجه من الزوجة المتوفاة. وفى أحد المطاعم تتهمه "مريم" بأنه السبب فى موت الزوجة المتوفاة، فيقرر بعدها السفر إلى تل أبيب بعد شراء الـهدايا لأم زوجته ولأبنائه وأمه.

وكانت الطفلة هى الجولة الثانية فى جولات التقائه بالنساء خلال الرواية، حيث يكلفه رئيسه فى العمل بمهمة رسمية فى مستوطنة " زروعا " بالجليل، وهناك يلتقى بهذه الطفلة الـهندية التى ينجذب نحوها، فهى طفلة تبلغ من العمر أحد عشر عاما، فيهتم بها "مولخو" وبشئون قريتها الفقيرة التى يعمل رجالـها فى الزراعة، بينما يعمل نساؤها فى إصلاح الأحذية بـ" قريات شمونه " . وكانت هذه الطفلة الشرقية هى الوحيدة التى اهتم بها "مولخو" عبر جولاته النسائية العديدة حيث تفتحت لـه آفاق المستقبل بعد لقائه بها. وربما يرجع ذلك إلى أصولـها الشرقية التى تتوافق تماما مع أصولـه الشرقية.

وتمضى أحداث الرواية فيلتقى "مولخو" بـ"يعراه"، التى تمثل الجولة النسائية الثالثة لـه فى رحلة البحث عن زوجـــة مع استعادة الحب القـديم الذى تأججت ذكرياته بذهابه إلى القدس موطن رأسه، حيث تعيش أمه هناك، وحيث تتجدد العلاقة العاطفية القديمة بينه وبين "يعراه " زميلة الدراسة. كانت "يعراه" متزوجة من رجل متدين يدعى "أور ى"، ولم تنجب حتى ذلك الحين وهى فى الثانية والخمسين من عمرها، حيث تعددت مرات الفشل فى الإنجاب. وكانت هى وزوجها ينتميان إلى الدينيين الذين تشغلـهم قضية إنجاب الأطفال. ويحدث أن يصحبها "مولخو" إلى مسكنه فى حيفا ويقضيان معا عدة أيام يتجولان خلالـها فى المدينة ويعود بعد ذلك زوجها ليأخذها إلى القدس.

وتأتى المحطة أو الجولة الأخيرة فى رحلة البحث، فيلتقى "مولخو" بـ "نينا" تلك الفتاة الروسية التى لم يمض على إقامتها فى إسرائيل سوى تسعة أشهر فقط سئمت خلالـها العيش فى هذه الدولة حتى إنها لم تتعلم العبرية، وقررت العودة إلى وطنها الأم. لقد التقى بها لأول مرة عند أم زوجته فى دار المسنات، وبعدها يذهبن إليه فى العمل بوزارة الداخلية لمساعدتهن فى حل مشكلة هذه الفتاة التى يعيقون عودتها إلى وطنها روسيا. فيقوم "مولخو" بمساعدتهن بالوزارة. وتتطور الأحداث وترسلـه أم الزوجة المتوفاة العجوز فى

مهمة على نفقتها الخاصة، تتلخص فى إعادة تلك الفتاة إلى بلادها أو وطنها. فيأخذها "مولخو" فى رحلة إلى فينا للحصول على بعض الأوراق من السفارة الروسية هناك، تساعدها فى العودة إلى روســـيا، وتفشل اللقاءات هناك مع مسئول الوكالة اليهودية. ثم يذهبان إلى برلين، وهناك يتركها فى شرق برلين دون أن يعرف عنها شيئا عائدا إلى الفندق فى انتظارها، ولكنها لم تعد. لقد تركت لـه رسالة تقول إنها فى روسيا. فيعود بعدها "مولخو" إلى إسرائيل بعد أن علم بمرض أم زوجته واحتضارها. وهكذا تنتهى الرواية و"مولخو" يفكر فى الحـرية والنساء وضرورة الحب فى الحياة. لقد تجاوز خلال سنة مسيرة التحرر، وصمد متحدياً ومتمرداً ضد العقلية الغربية. وانتهت الرواية بعزم "مولخو" على الحب. حب من يشاء دون سيطرة أو قيد، حب من يتوافق معه فى البيئة والمكان.

اتجاهات نقد الصهيونية فى الرواية:

إن الصهيونية، بما طرحته من أهداف كحل لما يسمى بالمشكلة اليهودية فى العالم، تعد هى الحركة اليهودية الوحيدة التى تعلقت بها آمال اليهود فى الانعتاق والتحرر وإقامة دولتهم المستقلة، وصهر جماعات اليهود المختلفة فى بوتقة واحدة. ولقد تداخلت الظروف والأحداث فى بلورة هذه الحركة، فكان لـها نجاحاتها فى إقامة الدولة وإخفاقاتها التى استفحلت بعد قيام الدولة واسترعت انتباه عدد من الأدباء الإسرائيليين مع مطلع الثمانينيات من القرن العشرين. وفى ذروة المناداة بإعادة كتابة تاريخ دولة إسرائيل، كان لعدد من الأدباء الإسرائيليين دورهم فى نقد الصهيونية وتعريتها وطرح المعضلات التى وقع فيها الصهاينة على الملأ، وتميزت الرواية الإسرائيلية بهذا الدور عن بقية الأنواع الأخرى من فنون الأدب.

ويقول الناقد الإسرائيلى " يوسف أورن " فى هذا الصدد: " ... وفى العقد الأخير (من القرن العشرين)، مع بداية حرب لبنان وانتهاء بالانتفاضة، اشتد نقد الصهيونية فى الرواية الإسرائيلية ووصل إلى ذروته بمطالبة يهوشواع فى روايته (مولخو) بالانفصال عن الصهيونية الكلاسيكية والمراهنة بالأيديولوجية الجديدة التى تصب فى المعطيات الواقعية التى تعيش فيها الدولة والمجتمع الإسرائيلى " (1).

لقد صاغ يهوشواع هذه الرواية بأسلوب رمزى، وطرح خلالـها الواقع الحقيقى للمجتمع الإسرائيلى المعاش، ذلك الواقع الذى جعل الفرد الإسرائيلى يضع علامات استفهام عديدة حول الصهيونية ومغزى وجودها حتى الآن، لا سيما أنها السبب الرئيسى

(1) يوسف أورن: "هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى" (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص9).

فى كثير من المشكلات التى تفاقمت مع مرور الزمن، وأصبحت مع الواقع المعاصر أيديولوجية قديمة تتزايد إخفاقاتها يوماً بعد يوم.

وتأتى هذه الرواية لتطرح أمامنا بلـهجة نقدية لاذعة إخفاقات الصهيونية وفشل أهدافها وتأثير ذلك فى المجتمع الإسرائيلى. ويمكننا أن نتبين انتقاد يهوشواع للصهيونية عبر عدة معضلات تؤّرق المجتمع الإسرائيلى، وبخاصة أنه لم يعرض المشكلات فحسب، بل سعى لتصور الحلول فى نهاية الرواية من وجهة نظره الخاصة. وسنعرض هنا لأبرز الموضوعات ودلالاتها حسبما جاءت فى الرواية طبقاً لموقفه من الصهيونية الغربية:

أولاً: العلاقة بين الدولة والصهيونية:

أكد يهوشواع فى كثير من اللقاءات معه على ضرورة التدقيق فى أحداث رواياته وربطها بالواقع الذى يعيشه الإسرائيليون، إذ يقول: " إننى أطلب من قرائى، أيها السادة، أن يقرأو النص الروائى كلـه بإمعان "، وبمعنى آخر فإن يهوشواع يطلب من القارئ قراءة رواياته قراءة " رمزية " تصب فى الواقع الخارجى والداخلى لدولة إسرائيل.

ومن هنا، يمكن القول، إن يهوشواع يصوغ لنا العلاقة بين (الدولة) و(الصهيونية) فـى هذه الرواية، من خلال علاقة تجمع بين (زوج) شرقى و (زوجة) غربية، وهو بـذلك يـشير إلى "مولخو" السفارادى باعتباره يمثل الشريحة الأكبر من سكان إسـرائيل، التـى تنتمـى إلى ثقافة الشرق، أما الزوجة فهى تمثل الصهيونية التـى تبلـورت فـى كـل مـن شـرق أوروبـا وغربها.

ويدعو يهوشواع فى هذه الرواية إلى ضرورة انفصال الدولة عن الصهيونية من خلال الانفصال بين زوجين جاءت علاقاتهما المدمرة لتعطى لنا نتائج الربط بين الأيديولوجية الصهيونية الكلاسيكية التى نشأت فى الغرب، وبين واقع الحياة الحالى فى دولة إسرائيل التى أقيمت فى الشرق. وإذا كانت الدولة لم تخرج عن النص المكتوب الذى صاغته لـها الصهيونية فى بداية تكوينها، وخضعت خضوعاً تاماً لبرامجها ووسائل تحقيق أهدافها عبر مسيرة من سيطرة الصهيونية الغربية (الإشكنازية)، فإنه يمكننا أن نلخص هذه العلاقة بين الصهيونية الغربية والدولة فى هذه الرواية من خلال مرحلتين:

(1) مرحلة الخضوع (خضوع "مولخو" للعقلية الإشكنازية):

" يتميز الكيان الصهيونى كتجمع من المهاجرين المستوطنين، بكونه فسيفساء من المجموعات البشرية التى تفصل بعضها عن بعض خيوط عرقية وثقافية وغيرها. واليوم وبعد مرور أكثر من خمسين عاماً على قيام هذا الكيان، لا تزال نظرية (بوتقة الصهر) الصهيونية موضوعة على المحك، فى أبعد تقدير، كما كانت على الدوام. ومن أبرز

أشكال التمايزات الاجتماعية فى إسرائيل الانقسام إلى يهود غربيين (إشكنازيم •) ويهود شرقيين (سفاراديم ••) ... ويتجسد هذا الانقسام فى الفجوة الطائفية المسماة (إثنية) أحياناً، التى تفصل بين الطرفين فى مجالات مستوى الحياة والتعليم والعمالة والثقافة والتمثيل على مستوى قمة الهرم الرسمى، السياسى والعسكرى، كما تتجسد فى نمط الاقتراع للكنيست ولرئيس الحكومة، حيث تحصد الأحزاب اليمينية معظم أصوات السفاراديم فى حين تعطى أغلبية الإشكنازيم مرشحى الأحزاب اليسارية أصواتها " (□) .

وربما تعود الخصومة بين اليهود الشرقيين والأحزاب اليسارية إلى سيطرة حزب العمل – الذى يمثل صوت اليهود الإشكنازيم ذوى الأصل الأوروبى – على مقاليد الحكم منذ قيام الدولة 1948 وحتى عام 1977، وهى فترة لم يحظ فيها اليهود الشرقيون باهتمام مباشر بشئونهم الاجتماعية من قبل الحكومة الإسرائيلية اليسارية على كل المستويات الاجتماعية والثقافية والسياسية والتعليمية، بعكس الاهتمام البالغ بشئون اليهود الغربيين .

" لقد بدأت القرارات التمييزية التى اتخذها المسئولون الإسرائيليون ضد السفاراديم قبل وصول السفاراديم إلى إسرائيل، وقامت على أساس أن الإشكنازيم، باعتبارهم (ملح الأرض) يستحقون أوضاعاً أفضل و(امتيازات خاصة) ... وعلى العكس من المهاجرين (الإشكنازيم) عومل السفاراديم بصورة غير إنسانية فى المعسكرات التى أقامها الصهيونيون فى بلاد المنشأ فى أثناء الانتقال ... ومن هنا كان صوت إسرائيل الطاغى، بصورة لا تكاد تتغير تقريباً هو صوت اليهود الأوربيين الإشكنازيم، بينما صوت السفاراديم هو صوت مخنوق ومطموس إلى حد كبير " (□) .

وتكمن هامشية اليهود السفاراديم داخل المجتمع الإسرائيلى فى اعتقاد اليهود الإشكنازيم بأنهم أصحاب الحضارة الأرقى، على اعتبار أنهم من الصفوة الإسرائيلية وينتمى إليهم قادة الدولة من رواد الحركة الصهيونية التى نجحت فى خلق كيان مستقل لليهود، وعلى اعتبار أن اليهود الشرقيين هم أبناء مجتمعات متخلفة وبيئات غير متحضرة، وليس عليهم سوى الانصياع والخضوع لمن هم أعرق حضارة وأعظم ثقافة .

(•) إشكناز: كلمة تعنى بالعبرية ألمانيا. وهى تطلق على كل اليهود المنحدرين من أصول ألمانية وفرنسية أو أوربية، ويمتد شمول التسمية لتطلق كذلك على يهود أمريكا الشمالية والجنوبية .

(••) سفارديم: صيغة الجمع بالعبرية من الاصطلاح " سفاردى " نسبة إلى " سفاراد " (أسبانيا). وهو اصطلاح يطلق على اليهود الذين أقاموا فى أجزاء مختلفة من شمال أفريقيا (المغرب ـ تونس ـ الجزائر ـ ليبيا) وتركيا وإيران واليونان والبرتغال والهند .

(□) انظر: خالد عايد: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، مجلة الدراسات الفلسطينية، مؤسسة الدراسات الفلسطينية بيروت، العدد (36) خريف 1998، (ص 103) .

(□) انظر: ايلا حبيبة شوحط: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، الصهيونيون من وجهة نظر ضحاياها اليهود، مجلة الدراسات الفلسطينية، العدد (36)، مرجع سابق، (ص 105 – 106) .

وقد عبر يهوشواع، باعتباره أديباً سفارادى الأصل، عن هذه الورطة أو المعـضلة التـى تسعى إلى الجمع بين طائفتين يختلفـان تمامـاً عـــن بعـضهما بعـضا فـــى الحـضارة والتـاريخ والثقافة، مشيراً إلى أن معمل التفريخ الذى شيده الصهيونيون الغربيون وتمخضت عنه دولـة إسرائيل فى الشرق وأخضع البيئة الشرقية لمتطلبات الحضارة الغربية لن يـستمر طـويلاً، وأن الخضوع المرحلى سوف يأخذ وقته، ليعقبـه التحـرر التـام الـذى ستفرضـه ظـروف الواقـع والبيئة والمكان.

وقد عرض يهوشواع تلك المعضلة، فى هذه الرواية، من خلال تناول أدبى لطبيعة العلاقة التى تجمع بين زوجين من أصول مختلفة. إن "مولخو" الزوج السفارادى (المولود فى القدس) يخضع خضوعاً تاماً لعقلية زوجته ذات الأصول الإشكنازية (المولودة فى برلين) التى عوّدته على الانصياع لـها دون مناقشة أو جدال:

" كان سعيداً بتلبية ما تريده وقد عودته على ذلك جيداً فى الـشهور الأخـيرة واعتـاد الانصياع لرغبتها تماماً، والتعامل بجدية مع كل كلمة تصدر عنها "[1].

" لقد عرفت زوجته كيف تصدر أوامرها بدقة وتعلمه كيف يعتنى بها "[2].

" سألتها الخادمة ماذا تطهو؟.. واقترحت عدة اقتراحات، وكانت زوجته هى التـى تقرر دائماً قائمة الطعام "[3].

" كان يجيب، ليس لدىّ شيئاً لأقولـه، فكل شـئ متعلـق بـك، فأنـا مجـرد شـخص أعمل لديك فحسب، وكانت تلك هى الحقيقة "[4].

وهكذا لم يكن لـ"مولخو" أى دور فى الحياة الزوجية إلا أن يطيع وينفذ، فقد كان يشعر بدونيته كرجل شرقى متزوج من امرأة غربية عرفت كيف ترّوضه ليستجيب لـها حتى إنه يعترف بذلك:

" لقد عـــودتنى زوجتى علـى أنها هى المتحدثة، أما أنا فكنت فى الحقيقة أجيـب عليها فقط "[5].

" لقد كان "مولخو" شخصاً مستكيناً إلى حد الخضوع لـها، حتى بعد وفاتها، وكان إنساناً فقد تحت ضغط زوجته الشديد والمتعاظم صورة هويته المستقلة، وأصبح خاضعا متماهياً معها، يخجل من ســفارادیته ويسـتجيب للانغماس فى الثقافة الإشكنازية من خلال شل فعالية استقلاليته "[6].

---

(1) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص11).
(2) نفس المرجع، (ص27).
(3) نفس المرجع، (ص28)
(4) نفس المرجع، (ص110)
(5) نفس المرجع، (ص231).
(6) يوسف أورن: "هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى" (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص27).

وربما يذكرنا هذا بطفولة يهوشواع، " فقد كان سفارادياً مختلطاً، تحفظ منذ صباه من الطائفة السفارادية، وذلك لضحالتها الثقافية ... وكانت لأمه تقاليد مختلفة عن والده "[1] حيث كانت حريصة كل الحرص على دمج ابنها يهوشواع فى مجتمع اليهود الإشكنازيم. " ففى أحد مقالاته يوضح يهوشواع أن أمه لم تنتم للسفارايديم القدامى فى القدس، مثل أبيه، وعلى الرغم من أنها جاءت إلى هنا فى عام 1932 قادمة من المغرب، فإنها لم تكن لديها مشاعر خاصة أو ملزمة تجاه الطائفة السفارادية. فربما كانت ترى أن الطريق الصحيح هو أن توجه أبناءها بشكل عملى ناحية تلك البلاد التى يحيط بها عالم الصهيونيين الإشكنازيم، ومن هنا أرسلت يهوشواع وأخته إلى المدرسة الثانوية (رحافيا) ولم ترسله إلى مدرسة (تحكمونى) مدرسة الطائفة السفارادية فى القدس "[2].

واستمراراً لهذا النهج لم تترك زوجته له شيئاً يفعله بنفسه، حيث كانت لها مطالب صارمة فى العديد من الأشياء، ومنها على سبيل المثال، النظافة التى كان يستجيب لمتطلبات زوجته بشأنها ليحظى بالرضى وبنظرة حب خاصة:

" كانوا مجبرين على الاستحمام يومياً، ليس فى دورة المياه، بل فى غرفة الاستحمام لأنها المكان الوحيد الذى يضمن طهارة الجسم، وطوال ثلاثين عاماً من زواجه، كان يشك فى شئون نظافته. وأدرك مولخو دائماً أنه إذا أراد أن يرضيها فعليه أن يدخل مرة أخرى ليستحم، حيث يحظى بعدها بنظرة حب خاصة "[3].

وكان إحساس زوجته بأنها ربيبة الثقافة الغربية المتحضرة له عظيم الأثر فى سيطرتها ونقدها لكل شئ يفعله زوجها. " إنها زوجة غاضبة تنتقد كل شئ، فهى عصبية بصورة دائمة تجاه الخادمة، وتجاه الدولة، والزوج. وكانت تتنبأ بالشر فى الموضوعات السياسية، وتنوح على الدولة، كما لو أنها تنوح على إنسان يحتضر "[4].

ويعلق يوسف أورن على ذلك قائلاً: " حافظ مولخوعلى إخلاصه لزوجته كما تظاهر به طوال سنوات زواجهما، وكذلك خلال السبع سنوات التى مرضت خلالها. لقد سيطرت عليه لسنوات طوال، وعودته على خدمتها، وجعلته يتعود على عاداتها وألزمته

---

(1) يوسف سيه لافان: " أ. بيت يهوشـــواع " (أبراهام بيت يهوشواع)، دار نشـــر أور عم، 1973(ص5).

(2) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص7).

(3) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص280).

(4) شاريت فوكس: " محول هامافيت " (رقصة الموت)، مجلة " عيتون شبعيم فشيفع "، العدد 87، أبريل، إسرائيل، (ص20).

باحترامها. وها هى الرواية تعرض أمامنا النتيجة: رجل إمعة يحمل بين أمتعته فأراً رمادياً ومتعباً، مـازال مسـتمراً فى تنفيذ التعليمات الغريبة عليه بشكل استبدادى حتى بعد موت زوجته. فهو مازال يذهب للحفلات الموسيقية وحفلات الأوبرا، ويتبع نظامه اليومى طبقاً لما أملته عليه زوجته قبـل وفاتها: يتطيب بالعطور، ويبدل ملابسه الداخلية، ويحافظ على النظافة، ويطبخ فى خضوع تام" (1).

وهكذا جاءت هذه المرحلة لتتسم بخضوع الزوج السفارادى التـام للزوجـة (الـصهيونية الغربية) دون الخروج عن خط السير ودون مراعاة للواقع والظروف، "وتكـشف لنـا الفـترة الأخيرة فى حياتهما المشتركة – فترة المرض المزمن – عن أهمية تـاريخ آخـر، تـشير إليهـا قصة الرواية، وهو أن زواج "مولخو" من زوجته قد استمر ثلاثين عاماً، حيث تغطـى هـذه السنوات تقريباً سنوات الدولة (1948ـ1978)، وهى تلك السنوات التى خرجـت فيهـا الصهيونية من معقل الأيديولوجيات وبدأت تختبر قوتها فى واقع الحياة عندما أخذت الدولة تخضع بشدة لمطالبها التنبؤية، تماماً مثلما كانت تخضع الزوجة المتوفاة زوجها الشرقى لقيمها الغربية" (2).

(2) مرحلة التحرر (تحرر "مولخو" من قيود زوجته الإشكنازية):

جاءت وفاة زوجة "مولخو" بمثابة التمهيد لطرح الإنفصال التام عن الصهيونية. وعلى الرغم من خضوع "مولخو" لروح زوجته بعد وفاتها طوال عام كامل، فإنه نجح فى النهايـة فى الانفصال عنها والشعور بالحرية، ليبدأ رحلة بحث عن زوجة جديدة أو ربما أيديولوجيـة جديدة بعد سنوات عديدة عاشها فى خضوع وخنوع.

لقد كانت لحظة الموت نقطة تحول فى حياة "مولخو"، فهى لحظـة الحريـة التـى سـينعم بها، وكأنما يريد يهواشوع القول بأن التحرر من الصهيونية الغربية وفكـرة الانفـصال عنهـا هى أفضل حل للوضع الراهن:

> "تفحص "مولخو" الزوجة المتوفاة وقتـاً طـويلاً، كمـا لـو أن هنـاك شكـــاً فـى موتها، فانتابه الخوف للحظة، خشية ألا تكـون قـد ماتـت وأن تكـون قـد فقـدت وعيها فقط وكان غاضباً من الطبيب الذى جعلـه يتشكك فى شىء ما" (3).

وهكذا، استبدت مشاعر الخوف بمولخو، وعمه الغضب خشية ألا تكون قد ماتت. وكان الشك فى موتها بمثابة إشارة إلى اختلاف الآراء حول رحيل الصهيونية، وتمسك

---

(1) يوسف أورن: "هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى" (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص27).
(2) نفس المرجع، (ص27).
(3) أبراهام بيت يهوشواع: "مولخو"، رواية، مرجع سابق، (ص21).

بعضهم بضرورة وجودها إلا أن يهوشواع أصر على ضرورة رحيلـهـا، لأنه كان يرى أنه لم يعد للصهيونية دور فى الحياة، وأن الدولة أهم بكثير :

" كانوا يتوجهون إليها مباشرة عندما كانت على قيـد الحيـاة والآن يتوجـه الجميـع إليه فقط " (□).

" كانت كل الأعين تتطلع إليه، وترافقه " (□).

" ... لقد تعلق الأمل به " (□).

وهكذا، كان موت الزوجة بمثابة أمل جديد فى حياة جديدة مختلفة، وعلى الرغم من ذلك، فإنه كان قلقاً وخائفاً أيضاً من المصير :

" بدا موتـها بالنسبة لـه بمثابة شعاع من نور، ولكنه بدا أيضاً كنـوع مـن التهديـد بسجنه هنا فى البيت بمفرده " (□).

وهنا يبدو التأرجح الذى وقع فيه "مولخو" بعد موت زوجته، فإذا كان قد شعر بحريته وبدا مـوتها بمثابة بارقة أمل نحو التحرر الذاتى، فإنه فى نفس الوقت كان يخشى من عبء هذه الحرية التى نعم بها، وبخاصة أنه قد ذاب طوال ثلاثين عاماً فى المجتمع الإشكنازى الذى تعود عليه وأفقده حريته، ويعلق أبراهام بلفان، على هذا الوضع المتأزم الذى وقع فيه "مولخو" بقولـه : " لقد اندفع "مولخو" تجاه المجتمع الإشكنازى، وحاول أن يذوب فيه، ومع هذا، لم يستطع أن يتحول إلى فرد من هذا المجتمع وشعر بالـهوة التى تفصلـه عن هذا المجتمع الإشكنازى ... إنه لم يكن منتمياً، ذات يوم، إلى عالم الإشكنازيم " (□).

وربما يبدو هذا الأمر وكأنه يتعارض مع تأكيد يهوشواع ذاته على أنه تطلع طوال حياته إلى الابتعاد عن جذوره السفارادية، حيث " تمثل علاقة يهوشواع بجذوره نقطة مهمة فى تطور حياته الأدبية، ففى أعمالـه الأولى لا يوجد مايشير إلى جذوره السفارادية أو إلى السفاراديم أبناء الاستيطان اليهودى القديم فى القدس. وعلى الرغم من اعتراف يهوشواع بأنه تطلع طوال حياته إلى الابتعاد عن جذوره ليبقى أديباً (إسرائيلياً) فحسب، فإن سفارادیته بدأت تحتل مكانة بارزة فى أعمالـه الأدبية منذ روايته (العاشق) 1977فصاعداً " (□)، وربما يعود ذلك إلى صعود اليمين الصهيونى للحكم فى إسرائيل بعد

(□)أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، (ص22).
(□) نفس المرجع.
(□) نفس المرجع، (ص24).
(□) نفس المرجع، (ص34).
(□) أبراهام بلفان : " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " ، مرجع سابق، (ص8،9).
(□) جرشون شاكيد : " سفروت آز – كان – عخشاف " (أدب الماضى والحاضر) دار نشر زمورا بيتان، تل أبيب، 1993، (153ـ154).

أن تحول السفاراديم إلى أغلبية وتحسن الوضع الاجتماعى والثقافى للسفارادية بعد الانقلاب الذى حدث فى انتخابات 1977 .

كما يعلق شاكيد عن حالة الاندماج واللا اندماج الذى وقع فيها "مولخو" فى هذه الرواية بقولـه: " يمكن القول، إن يهوشواع، حقاً، (تعود جذوره إلى الطائفة السفارادية)، ولكنه يصوغ لنا شخصية من نفس الطائفة بسخرية بالغة، ولم يستطع يهوشواع أن يقوّم الانقسام الداخلى الذى يعيشه ما بين جذوره وجذور أبطالـه السفاراديم وصراعهم مع ما يحيط بهم. لقد ظل بطلـه المندمج سفارادياً بائساً، لم ينجح فى الاندماج ليصبح إشكنازياً، ويعيش بؤسه وضحالته. وربما هناك شبه اعتراف من المؤلف فى هذه الرواية، بأن البطل على الرغم من نزوعه للعالم الإشكنازى، فإنه ليس على استعداد أن ينفض عنه غبار هويته التى تلاحقه فى كل مكان حتى ولو حاول الـهروب منها " (٭) .

ويشير " شاليف " كذلك، إلى الوضع المتأزم الذى وقـع فيـه "مولخـو" لحظـه المـوت بقـولـه: " كان "مولخـو" لحظـة مـوت زوجتـه كمـن ألقـى علـى عاتقـه مهمـة مزدوجـة ومسـتحيلة على مايبدو. فمن جانب، حكم علـى نفـسه أن يحيـى ذكـرى زوجتـه المتوفـاة بشكل دائم، تلك الزوجة التى لم تجعلـه يعرف طعماً للراحة حتـى عنـد موتهـا... فطـوال ثلاثين عاماً من الزواج كانت تعرقل تقدمه كشخـصية مـستقلة ذات هويـة ... ومـن جانـب آخـر، فإن "مولخو" يحاول أن يعطى مضموناً لـذلك الإحـساس الغـامض بالحـرية التـى كانت بالنسـبة لـه (شعاعاً من نـور، وخـوفاً مـن الوحـدة) " (٭) . وهـو مـا أكـد عليـه يهوشواع، حيث أصبح للحياة بعد موتها طعم آخر، وبدأ جو ساحر يدب فى الحياة:

" غمر القمر سريره، وبدت نجوم جديدة وهائلة فى الأفق. وفى منتـصف الليـل أدار سريره ليكون فى مواجهة النافذة لكى ينظر إلى تلك السماء الرائعة " (٭) .

" لقد أراد أن يثبت لــها بأنـه حظـى فعـلاً بحريـة جديـدة، وأن المعـايير تغـيرت قليلاً " (٭) .

لقد عانى "مولخو" طوال سنوات زواجه من القيود التى كبّلته بها زوجته، تلك القيود التى لم يستطع الفكاك منها. أما الحرية التى حظى بها هى حرية غالية قد يستطيع من خلالـها أن يثبت ذاته وهويته التى طمست طوال ثلاثين عاماً من الزواج، وبخاصة أن زوجته

(٭) جرشون شاكيد: " سفروت آز – كان – عخشاف " (أدب الماضى والحاضر) مرجع سابق، (ص155).

(٭) عانار شاليف: "مولخو أوو شقيعات هامعراف " (مولخو أو غروب الغرب)، مجلة سيمان قريئاه، العدد 20 للمحرر مناحم بيرى، 20 مايو 1990، (ص475).

(٭) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص44).

(٭) نفس المرجع، (ص134).

كانت تتمتع بروح نقدية عالية للغاية، حتى إن "مولخو" أخذ يتساءل فى نفسه، هل تنتقد الأرواح أيضاً وهى فى العالم الآخر؟:

" . . هل استراحت روحها حقاً وأصبحت هادئة ومستكينة؟ وهـل توقفـت حقـاً ملاحظاتها حول العالم؟ وتوقف نقدها الذى لا يعرف المساومة؟ أم أنهـا تتجـول هناك أيضاً فى العالم الآخر؟ وتنتقد نظم الأرواح والسماء؟ "(1).

ومن ناحية أخرى، يؤكد " بلفان " على أن المواجهة بين "مولخو " وزوجته هى مواجهة مزدوجة، حيث يقول: " إن المواجهة بين "مولخو" وزوجته مواجهة تحتمل اكثر مما نعتقد جميعاً. فعل ما يبدو، فأمامنا صدام معروف بين شخصية تمثل الطبيعة، هذا من جانب، وبين شخصية تشير إلى الحضارة أو الثقافة، من جانب أخر. ولم يكن "مولخو" شخصية بسـيطة فحسب، بل هو شـخصية اجتثت من جـذورها بسـعيها للعيش داخل هذا العالم (الثقافى) "(2).

ومن هنا كان تحرر "مولخو" من تسلط زوجته، فى حقيقة الأمر، تعبيراً عن تحرر الدولة من الصهيونية الغربية التى حددت لـها المكان والزمان، حيث حان الآن وقت التغيير والتحرر وأصبح على "مولخو" (الدولة) أن يحدد بنفسه مصيره فى الزمان والمكان:

" كانت زوجته تعرف كيف تحدد الأماكن، وتربطها بزمنه وزمنهـا، لقـد كانـت تدرك كيف تقول لـه أين كان، فعلاً، وأين يتخيل بنفسه ما كان، أما الآن فيجب عليه أن يحدد بنفسه هل كان هنا ومتى؟ "(3).

" إنه منذ هذه اللحظة يسير إلى حيثما يريد، دون أن تستطيع أن توقفه "(4).

وعلى سبيل المثال، تحرر "مولخو" من قيود عديدة فرضتها عليه زوجته قبل مماتها، حيث كانت تمنعه من النوم عند الغرباء. وبعد موتها، تحرر من تلك التحذيرات، وأصبح يفعل ما يشاء:

" اندهش، إنها لم تكن تحب أن ينام فى بيوت الغرباء، ومنذ موتها كان ذلك هو البيت الثانى بالفعل الذى نام فيه "(5).

وقد تمنـى مولخو أن تعود زوجته للحياة لترى كيف أصبح إنساناً آخر، يعتمد على نفسه، ويشعر بالحرية، ولديه من القوة ما يمكنه من مصارحتها بفشلـها:

---

(1) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، (ص139).
(2) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص89).
(3) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، (ص146).
(4) نفس المرجع، (ص153).
(5) نفس المرجع، (ص173).

" لو جاءت الآن لكان ردى عليها مذهلاً، لدرجة أنها سوف تعترف أننى تطورت بعض الشىء منذ الشتاء الماضى " (□) .

وربما تشير أيضـا تلك العــلاقة التى جمعت بين "مولخـو" (السفارادى) وزوجته (الإشكنازية)، طوال ثلاثين عاماً من الزواج، إلى سيطرة حزب العمل على مقاليد السلطة فى إسرائيل منذ 1948 وحتى 1977، حيث تأججت الخصومة، كما أشرنا من قبل، بين اليهود السفاراديم وحكومة اليسار الإسرائيلى التى أهملت تماماً شئون الطائفة اليهودية السفارادية على كل المستويات الاجتماعية والتعليمية، بعكس اهتمامها باليهود الغربيين. وعلى سبيل المثال، كانت حادثة أطفال يهود اليمن خير معبر عن مدى عمق هذه الكراهية بين حزب العمل وبين اليهود السفاراديم، حيث اختطف أطفال هؤلاء اليهود اليمنيين (•) إبان هجرتهم فى الخمسينيات إلى إسرائيل، ليعيشوا فى بيوت أسرية اشكنازية، مما يشير إلى النظرة الفوقية من قبل الحكومة، خلال تلك الفترة، لليهود السفاراديم. وربما يأتى تحرر "مولخو" من قيود زوجته، كتعبير عن تحرر هؤلاء السفاراديم من حكم اليسار الإسرائيلى طوال ثلاثين عاماً، وصعود اليمين الصهيونى للحكم الذى اهتم، إلى حد ما، بشئون هؤلاء اليهود السفاراديم، وبما يعنى، فى مقابل هذا، أيضاً تحرر (الدولة) من قيود (الصهيونية الغربية) التى تفاخر بها اليسار الإسرائيلى حتى عام 1977. وهو ما يعلق عليه أبرا هام بلفان قائلاً: " كان التطور التاريخي للحركة الصهيونية يكمن فى العديد من المواقف التى شغلت بال يهوشواع طوال سنوات عديدة. وبقى السؤال: هل كان فى مقدور الحركة الصهيونية أن تتـقبل النقد فى السنـوات العشر الأخيرة – يقصد السبعينيات والثمانينيات ـ الذى ظهر فى الكتابات القصصية والنقدية ليهوشواع " (□) .

وهكذا، يتعرض يهوشواع للعلاقة بين الدولة والصهيونية عبر مرحلتين من الخضوع والتحرر حاول من خلالـهما أن يوضح لنا حال الدولة فى أثناء الخضوع والسير على درب الصهيونية دون مراعاة للواقع والظروف التى تمر بها الدولة، وحال الدولة عند التحرر. وكأنه يريد أن يكون للدولة هوية مستقلة تستلـهمها من الواقع وما يفرضه دون التشبث بشعارات جوفاء ووعود رنانة لم تتحقق حتى الآن. ولن تأتى هذه الـهوية سوى بالتحرر كتمهيد للبحث عن بديل والانفصال التام عن الصهيونية الكلاسيكية.

(□) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص322).

(•) يرجع بعضهم أن حقيقة كون " ييجال عامير "، قاتل رئيس الوزراء الإسرائيلى السابق يتسحاق رابين، يأتى من الجالية اليمنية لا تبدوا أمراً عرضياً. فعامير يدعى أنه قتل رابين كى يحول دون تنفيذ اتفاقات أوسلو، لكن ما عمق كراهيته لرابين، على مايبدوا، هو غضب اليمنيين القديم نتيجة خطف الأطفال.

(□) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص10ـ11).

" لقد ذكرت الحرية التى حظى بها مولخو عند موت زوجته فى الرواية مرات كثيرة للغاية ... وكانت الحرية، بمعنى الخروج عن الطوق، هى موضوع رئيسى فى عدد من أعمال يهوشواع " (1)، وبخاصة أن يهوشواع يبحث عـن هوية (إسرائيلية) مجردة من التمييز الطائفى بين الإشكنازيم والسفاراديم، مجردة من خضوع من للطرف الآخر؟، وهى حقيقة ربما أدركها يهوشواع لكونه سفارادى الجذور، فموقف اليهود السفاراديم من الصهيونية معروف، لأن جذورهم مغروسة فى هذه الأرض، بعكس الإشكنازيم المهاجرين إليها، وهو ما يتحدث عنه شاكيد بقولـه: " إن العلاقة التى تربط اليهود السفاراديم بإسرائيل وبالمشروع الصهيونى، تختلف عن تلك العلاقة التى تجمع بين اليهود الإشكنازيم والصهيونية. فالمبدأ الأساسى لدى هؤلاء اليهود السفاراديم لم يكن الصهيونية ذاتها بل فلسطين ...أما اليهود الإشكنازيم فهم أصحاب الإنجاز ويشعرون بقوة الصهيونية ... ولكن جذور اليهود السفاراديم مغروسة فى تلك الأرض حتى وإن كانوا بعيدين عنها " (2).

ثانيا: تحطم بوتقة الانصهار (فشل الصهيونية فى تجميع الشتات اليهودى داخل إسرائيل):

سعت الصهيونية منذ البدايات الأولى لظهورها إلى هدف تجميع شتات اليهود فى وطن قومى، ورفعت شعار بوتقة الانصهار التى ستذوب فيها جموع اليهود المختلفة فى هذا الوطن الجديد، ولم تضع الصهيونية، آنذاك، فى الحسبان الثقافات اليهودية المختلفة التى تأثر بها اليهودى فى أثناء وجوده فى البلد التى عاش فيها، وواجهت بعد قيام الدولة معضلة تمثلت فى اختلاف الأجناس والعادات وتمسك كل يهودى بما اكتسبه فى البلد الذى عاش فيه مرحلة طويلة من عمره ؛ مما أدى إلى صعوبة التجانس والتكيف بين اليهود داخل إسرائيل، الأمر الذى جعل مقولة "بوتقة الانصهار" تسقط سقوطاً مروعاً وتتحطم مع البدايات الأولى لقيام الدولة.

ويعبر أ. ب. يهوشواع فى كتابه (بفضل الطبيعية) عن موقفه من الشتات الذى أصبح مصدر المشـكلات بعد قيام الدولة بقولـه: " تعتبر قضية الشتات من أهم القضايا وأعمقها، لا سيما وأنها تفرض على اليهودى أن يسأل نفسه، عندما يضل به الطريق، عن ماهية الشعب اليهودى. فالشتات هو مصـدر المشكلات التى يتخبط فيها اليهود منذ أجيال عديدة، وبخاصة فى المائة عام الأخيرة (القرن العشرين). وهو أيضاً لب المشكلات الحقيقية التى تتخبط بها دولة إسرائيل فى الحاضر " (3).

---

(1) يديديا يتسحاقى: " هابسوقيم هاستوييم من هاعيين عل يتسيراتوه شل يهوشواع أوشلوشاه سيبوريم "(ما خفى فى انتاج يهوشواع وثلاث قصص)، دار نشر جامعة بار ايلان، تل أبيب، 1992، (191).
(2) جرشون شاكيد: "سفروت از – كان – عخشاف" (أدب الماضى والحاضر)، مرجع سابق، (ص157).
(3) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص27ـ28).

وعلى هذا الأساس، نظر " يهوشواع " إلى الحركة الصهيونية كحدث تاريخى يقف عند حد إقامة الدولة، ولم ينجح فى تحقيق هدف تجميع الشتات اليهودى داخل إسرائيل، " إذ إن ثلاثة أرباع اليهود مازالوا يعيشون خارج حدود الدولة " (1)، كما أن الصهيونية لم تنجح فى صهر اليهود المتجمعين داخل الدولة، حيث يقول: "إننى أظن أن الـهدف الأساسى للصهيونية قد انتهى. فأنا لا أرى فى الصهيونية أيديولوجية كاملة، أو نهجا حياتيا شاملا، أو فلسفة اجتماعية خاصة، بل هى أولاً وقبل كل شىء عملية تاريخية خاصة؛ كان هدفها تحقيق الطبيعية مهما كانت كحل للمشكلة اليهودية عن طريق تمركز جزء من الشعب اليهودى بشكل إقليمى فى دولة خاصة بهم " (2).

وقد عبر يهوشواع فى هذه الرواية عن إبراز الظواهر التى تمخضت عن فشل الصهيونية فى صهر جموع اليهود داخل إسرائيل. باعتبار أن الـهدف الأسمى لتلك الحركة كان هو صهر اليهود فى مجتمع جديد، مجتمع يهودى ذى سمة عبرية خالصة تذوب فيه كل المشكلات والمحن، إلا أنها لم تنجح فى ذلك، وهو الأمر الذى جعل المجتمع الإسرائيلى مكدساً بآفات الاختلاف بين طوائف اليهود فى العالم، وتعرت الحقيقة كاملة أمام الفرد الإسرائيلى الذى أخذ يتساءل عن مدى تحقق وعود الصهيونية فى الواقع الحياتى. وقد عبر يهوشواع عن هذه المظاهر السلبية فى النقاط التالية:

(1) النزوح عن إسرائيل:

عبر يهوشواع عن مسألة النزوح عن إسرائيل وتأصل الشتات فى النفس اليهودية من خلال شخصيه "نينا" ؛ تلك المهاجرة الروسية التى لم يمض على إقامتها فى إسرائيل سوى تسعه أشهر فقط، لم تتأقلم خلالـها على الحياة فى إسرائيل، وأصرت على العودة إلى وطنها الأم روسيا.

ولكون الشتات طبيعة متأصلة فى النفس اليهودية، كما يقول يهوشواع فقد جاءت معظم شخصيات هذه الرواية لتتفق مع مبدأ العودة إلى الوطن الأم، وساعد الجميع هذه الفتاة على العودة إلى وطنها ؛ لتنجح فى النهاية، معبرة عن ذلك الواقع المؤلم الذى يعيشه المجتمع الإسرائيلي، ومعبرة عن تحطيم مبدأ (عدم العودة إلى بلاد الشتات) الذى أقرته الصهيونية.

---

(1) مناحم برينكر: "احارى هاتسيونوت" (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، 19ـمارس –1986 (ص21).

(2) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت "(أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (ص96).

" فقد كان للصهيونية مبدأ مقدس وهو: عدم العودة أبداً إلى بلاد الشتات. حيث كانت تعبر فى أيديولوجيتها عن ذلك المبدأ فى التخلص من (خطأ الشتات). ويكمن مركز الثقل فى هذه الرواية، فى أنه من أجل الحياة، ومن أجل استمرارية قيام الدولة كدولة طبيعية، لابد وأن تقاد طبقاً للإمكانيات الواقعية، ومن أجل كل ذلك يجب تحطيم هذا (المبدأ) واستغلال نتيجة تحطيمه، أولاً ضد هذه الأيديولوجية نفسها، ثم يتم بعد ذلك استبعادها عن الدولة " (1).

إن يهوشواع ينظر للشتات نظرة خاصة، ويؤكد دائما على أنه حالة متأصلة فى النفس اليهودية، يشتاق إليها كلما ابتعد عنها:

"بدأ يشتاق للأيام الماضية، وملأت الأشواق قلبه بحرارة. لأن كل شئ انتهى الآن ورفع ديكور المسرح، وترك جمهورالأصدقاء القاعة، وتحول المسرح إلى كومة من الأخشاب، وبدا الزمن أمامه خرباً ومرهقاً " (2).

وهكذا، حاول يهوشواع على لسان القاص، فى الرواية، أن يفرق عن طريق الرمز بين الشتات وبين الواقع الذى يعيشه الفرد فى إسرائيل (كل شيء انتهى الآن)، بينما يبدو المستقبل خرباً مرهقاً. ويقول يهوشواع عن تأصل الشتات فى النفس اليهودية: "على الرغم من أن الشتات وضع مذل ودنئ ولم يأخذ أبداً شرعية حقيقية مثل أى وضع قائم ... فإنه يعد من المبادئ الأساسية للغاية التى تشكل جوهر الشعب اليهودى، فهو يتواجد فى النويات والذرات التى تبنى هويتنا النفسية والوجودية. وهو جزء منظم من أساطيرنا القومية. فضلاً عن أنه ليس حالة عابرة بل هو حالة داخلية اختارها الشعب ويشتاق إليها دائماً " (3).

ومن هنا كان النزوح عن إسرائيل وتفضيل الشتات على العيش فيها، أمراً يحلو لعدد غفير من اليهود، وإذا كان هؤلاء اليهود الذين يعيشون خارجها يفكرون فى أمر إسرائيل فإنهم يترددون فى الـهجرة إليها. ويكشف عن هذا الأمر، ذلك الحوار الذى دار بين "مولخو"، وهو فى باريس مع أحد أصدقائه الأطباء الذى يبين لنا نظرة اليهود الذين يعيشون خارج الدولة:

" بحثوا هناك معه حال الدولة وأمالـها بصفة عامة، وكان الطبيب يكرر بنوع من الغضب غير الواضح سؤالاً هو، هل تريدون الانتحار فى النهاية " (4).

---

(1) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص31).
(2) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص48).
(3) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص41).
(4) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص80).

وتتكرر مشاهد النزوح فى الرواية :

" كانت تلك أسرة شرقية، عالية الصوت إلى حد ما، تحمل معها الكثير من الحقائب والصناديق. فهل هؤلاء نازحون؟ " (1).

وهكذا، يؤكد يهوشواع على فكرة النزوح عن إسرائيل فى إشارة إلى ما يواجهه المهاجر اليهودى من مشكلات داخلية تجعلـه يفر وينزح عن المجتمع الإسرائيلى عائداً إلى وطنه الأم الذى عـاش فيه وتربى على تقاليده. ويتضح موقف يهوشواع من الشتات بصورة واضحة ومباشرة، فإذا كانت الصهيونية قد هدفت إلى إقامة وطن أو ملجأ آمن للجماعات اليهودية ونجحت فى ذلك، فإن المشكلة الكبرى التى واجهتها هى عدم مجيء معظم هؤلاء اليهود من بلاد الشتات، مما يثبت فشل الصهيونية. ويفند يهوشواع تلك المسـألة بقولـه: " هناك ضرورة لأن نصف بدقة مواقف الصهيونية وأهدافها. فأنا أرى أن الصهيونية تعنى إقامة ملجأ آمن لليهود وليس بالضبط العودة إلى الوطن القديم ... لقد تسلل الإحباط إلى عدد كبير من اليهود بعد وعد بلفور، بعد أن رفض عدد كبير من اليهود المجيء إلى فلسطين على الرغم من قدرتهم على الـهجرة... إن الأسطورة القومية، وشعارات الوطن القديم، وإسرائيل الكبرى، وأرض الأباء، كل هذا لم يأت لنا بكثير من اليهود، فلولا الحاجة الملحة فى إيجاد ملجأ يقى اليهود من المحرقة• لما جاء هنا شخص واحـد ولـهذا فإننى لا أؤمن بالحـق التاريخى لليـهود فى أرض فلسطين كمبرر وحيد للصهيونية " (2).

" وتعطينا الإحصائيات الإسرائيلية الرسمية فكرة واضحة عن عدد الذين هاجروا من إسرائيل ؛ ففى الفترة المحصورة بين 1948 –1986 بلغ عدد النازحين من إسرائيل 129 ألف نسمة. وتشير إحصائيات المكتب المركزى فى إسرائيل إلى أن عدد الذين غادروا إسرائيل منذ 1948 إلى 1970 وصل إلى 200 ألف يهودى " (3). كما وصل عدد الإسرائيليين النازحين من إسرائيل فى عام 2002، حسب آخر الإحصائيات الواردة من إسرائيل، إلى 18 ألف نسمة، وذلك بسبب الوضع الأمنى الذى خلّفته الانتفاضة الفلسطينية والعمليات الاستشهادية التى يقوم بها النشطاء الفلسطينيون رداً على العمليات

---

(1) نفس المرجع، (ص85).

(•) المحرقة: من المصطلحات التى تطلق فى الفكر الصهيونى على(أحداث النازى)، التى أباد فيها هتلر عددا من اليهود فى أفران الغاز. وحول هذه الأحداث يدور سجال واسع بين النقاد والمفكرين بشأن عدد هؤلاء اليهود الذين أبيدوا، والأسباب التى أدت إلى هذه الأحداث.

(2) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت "(أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (ص100ـ101).

(3) د. محمد خليفة حسن: الحركة الصهيونية وعلاقتها بالتراث الدينى اليهودى، مرجع سابق، ص (19).

العسكرية الإسرائيلية التى تنفذها قوات الاحتلال الإسرائيلى فى الأراضى الفلسطينية المحتلة (1).

وعلى الرغم من أن الصهيونية أرست مبدأ عدم العودة إلى بلاد الشتات مرة أخرى، إلا أن "مولخو" فى هذه الرواية يحطم هذا المبدأ ويتحرر منه:

" أخذ يفكر فى زوجته ... تلك التى أرست مبدأ أنها لن تعود إلى ألمانيا أبداً، وبقدر ما كان يحترم مبادءها فى حياتها، بقدر ما حرره موتها " (2).

لقد كان إيمان يهوشواع بالطبيعية، طبيعية وجود الإنسان فى بيئته ومكانه الحقيقى، سبباً فى بلورة قضية النزوح عن إسرائيل من خلال فتاة تبلغ من العمر 32 عاماً قررت وأصرت على العودة إلى وطنها بعد أن فشلت فى التأقلم مع مجتمع هذه الدولة، وهو ما يبين لنا فشل الصهيونية فى صهر اليهود المشتتين داخل إسرائيل فى بوتقة واحدة: "لقد ميّز على الفور ابنة هذه العجوز الروسية، تلك التى تخلق المتاعب، ولا تريد التأقلم فى مركز الاستيعاب وترغب فى العودة إلى الاتحاد السوفييتى " (3).

ويصور لنا يهوشواع نفسية هذه الفتاة التى لم تعد تطيق العيش فى إسرائيل فحسب، بل إنها لم تتعلم العبرية لغة الدولة، وهو واقع مرير يبين لنا كيف أن فتاة يهودية لا ترغب فى معرفة العبرية، كتعبير عن رفضها للاندماج فى الواقع الثقافى والاجتماعى للدولة:

" إنها لا تكاد تعرف العبرية تقريباً، ولا كذلك الإنجليزية أوالفرنسية، وهى تتمتم فقط بكلمات غريبة، وتسخر من نفسها، روحها عالية للغاية، وقد بدت لـها السماء عبر النافذة المفتوحة زرقاء للغاية " (4).

" لم يكن لديها استعداد للنطق بكلمة عبرية واحدة " (5).

ولم يكن هذا فحسب، بل إنها تريد التخلى عن الجنسية الإسرائيلية، فقد كانت تحمل معها استمارة التنازل عن الجنسية الإسرائيلية ضمن الاستمارات الأخرى:

" كانت هناك استمارة للحصول على جواز سفر، وأخرى للتخلى عن الجنسية الإسرائيلية " (6).

وهكذا، اصطدمت تلك الفتاة بالواقع الحقيقى الذى خلّفته الصهيونية ولم تستطع التأقلم مع أقرانها. وحاول يهوشواع التأكيد على حقها فى العودة إلى وطنها الأم من خلال وصفه لـها وهى تحمل كل أوراقها بوزارة الداخلية التى يعمل بها "مولخو"، ومن خلال

---

(1) انظر: صحيفة الرياض السعودية، 29ـ1ـ2003.
(2) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص102).
(3) نفس المرجع، (ص179).
(4) نفس المرجع، (ص179)
(5) نفس المرجع، (ص257).
(6) نفس المرجع، (ص257).

مصاحبة أمها وأم زوجته (زوجة "مولخو" المتوفاة) لـها وهى تتنقل من مكان لآخر، ومن خلال مساعدة "مولخو" لـها فى استكمال أوراقها. لأنه كان مؤمناً بحقها فى العودة وإصرارها عليها:

"وقال دون تذمر أو نقد، إننى أرى أنها بالفعل مصرة على العودة إلى هناك "(1).

" عاد من هناك وهو يحمل استمارات أخرى، وأجلس النساء الثلاث من حولـه لكى ينجز لـهن كل شىء بسرعة، ويجعل الموظفين يختمون الاستمارات قبل الذهاب إلى بيوتهم "(2).

وتعد مساعدة "مولخو" لـهن بهذه الـهمة، بمثابة موافقة ضمنية منه على النزوح عن إسرائيل، كما أن أم زوجته تلقى عليه بمهمة، " اتضح بعد ذلك أنها مهمة غريبة للغاية: وهى إعادة "نينا" المهاجرة الجديدة من أوربا (وبالتحديد: من روسيا التى وصل منها القائمون على الصهيونية) إلى المكان الذي هاجرت منه إلى هنا "(3)، كما أن "وطنها هو ذلك المكان الذي تشعر فيه بأنه وطنها، روسيا بالطبع، وهو ذلك المكان الذي تشعر فيه بالحب... فالوطن خيار وليس نزعة مقحمة "(4).

ويرى أبراهام بلفان أن مساعدة "مولخو" لتلك الفتاة، ربما يعنى تحرره نهائياً من زوجته، وربما يعنى أيضاً إعادة زوجته المتوفاة إلى وطنها الأم، وبخاصة أنه يعيدها عن طريق برلين الموطن الأصلى للفقيدة، حيث يقول: " لقد شعر "مولخو" أنه بعودة تلك اليهودية الروسية إلى وطنها عن طريق برلين، إنما هو يعيد زوجته إلى وطنها ويتحرر منها نهائياً. فلم يعنيه أن يقيم معها أية علاقة عاطفية أو جنسية، بقدر ما كان يعنيه مصلحته النفسية الواضحة فى الانفصال عنها "(5).

وبالإضافة إلى هذا، فإن موافقة "مولخو" وتطوعه لمصاحبة هذه الفتاة فى رحلة العودة إلى وطنها، هى محاولة لنفض غبار العقليات الإشكنازية التى تعلق بها. أضف إلى ذلك مساعدة وموافقة كل من أمها وأم زوجته على هذه العودة ؛ وهو ما يؤكد عليه " أبرا هام بلفان "بقولـه: "وهكذا، عندما تمكن "مولخو" من مساعدة "نينا" في العودة إلى وطنها، كما لو أنه (ينزح) تلك الفتاة إلى مكانها الحقيقى. وهو بذلك يعيد زوجته إلى وطنها وينفض عنه حملاً ثقيلاً ... علاوة على أنه لم يعرف الدوافع الحقيقية وراء مساعدته التطوعية لـ"نينا"، ولكنه كان يدرك تماماً ضـرورة عودة زوجتـه إلى الـوطن الذى تربت فيه قبـل

(1) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص257).
(2) نفس المرجع، (ص257).
(3) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص31).
(4) شاريت فوكس: " محول هامافيت " (رقصة الموت)، مرجع سابق (ص21).
(5) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص99).

هـروبها من برلين " [1]. إنه لم يستطع إعادة زوجته قبل وفاتها بحكم سيطرتها عليه، ولكنه الآن يعيد تلك الفتاة بعد أن ظلت حائرة تسعة أشهر فى إسرائيل :

لقد ظلت هنا تسعة أشهر تقريباً، ومازالت حائرة " [2].

وقد قامت أم الزوجة المتوفاة بدورها، وأنفقت على رحلة العودة من مالـها الخاص، وهو دليل على اقتناعها التام بموقف هذه الفتاة بحتمية العودة إلى وطنها الحقيقى، ودليل على اعترافها بفشل عودة الشتات اليهودى إلى إسرائيل كما كانت تهدف الصهيونية :

" أعطت العجوز لـه ثمانمائة دولار لتغطية نفقات هذه الرحلة " [3].

ويمكن القول، إن تحطم بوتقة الانصهار يبرز هنا فى هذه الرواية فى صورة ساخرة جاء بها يهوشواع بنفسه، ويتضح ذلك خلال ذلك الموقف الذى يتحدث فيه إسرائيليان بلغة الإشارة، حيث إن عدم معرفة "نينا" للغة العبرية، جعلت "مولخو" يتحدث معها طوال رحلته بلغة الإشارة. إنها بلا شك سخرية وإشارة للواقع الذى تعيشه إسرائيل، فأبناء مجتمعها لا يتحدثون لغة واحدة، وتصبح لغة الإشارات أحياناً هى المحك الرئيسى عندما يتطلب الموقف ذلك، وهو ما يعكس الفشل الذريع للصهيونية التى تحدثت كثيراً وبمبالغة كبيرة عن الوطن القومى اليهودى كبوتقة صهر ليهود العالم :

" شرح لـها، بلغة الإشارة، هامساً كيف تستخدم الصنابير المختلفة " [4].

وكان لعدم وجود لغة مشتركة بينهما، وهما إسرائيليان، مشكلة كبيرة بالنسـبة لـ"مولخو" ؛ فهو لا يعرف الروسية، وهى لا تعرف العبرية، حتى إننا نجده يستعين بموظف الاستقبال بالفندق لترجمة ما يريده لـها، ويحاول استعارة قاموس عبرى – روسى. وكانت صعوبة الحديث بينهما سبباً فى اختفائها عدة مرات دون أن يعرف لـها طريقاً :

" اتجه إلى الموظف وسألـه عن إمكانية أن يستعير قاموساً عبريا روسيا ... لقد اختفت دون أن أعرف طريقها، فاليوم اختفت وأنا فى صالون الحلاقة حتى وجدتها ... واتجه إليها الموظف وترجم لـها كلام "مولخو" " [5].

ولم تعرف هذه الفتاة خلال فترة وجودها فى إسرائيل سوى كلمة واحدة فقط بالعبرية هى كلمة (سيئ) مما أدهش "مولخو" لمعرفتها بهذه الكلمة. إنها لم تستطع أن تتعلم من

([1])أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص103ـ104).

([2]) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص272).

([3]) نفس المرجع، (ص275).

([4]) نفس المرجع، (ص276).

([5]) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص290).

العبرية سوى هذه الكلمة، ربما لتعبر عن سخطها على المجتمع الإسرائيلى، ذلك الواقع الذى زرعت فيه عن دون رغبة:

" لقد فاجأته بكلمة لم يتصور أنها تعرفها وهى كلمة سيئ، قالتها بابتسامة باهتة، سيء للغاية "(1).

أضف إلى ذلك، أنها لم تشعر بالإسرائيليين كأبناء لوطنها، بل إن الروس فقط هم أبناء وطنها الأم، وهو ما يتضح من شعورها فى أثناء دخولـها لمطعم مقابل للسفارة الروسية فى فيينا، كان يمتلئ بالموظفين الروس:

" امتلأ وجهها حماساً، لقد هزها ذلك المنظر الذى يجمع أبناء وطنها وهم يحيطون بها "(2).

وقد بذل "مولخو" قصارى جهده خلال رحلة العودة لـهذه الفتاة من أجل إعادتها إلى وطنها، ولم يتردد لحظة فى مساعدتها، بل كان يتدخل فى الحديث بينها وبين موظفى السفارة فى فيينا حتى لا يجبرها أحد على العودة إلى إسرائيل مرة أخرى:

" ولكن "مولخو" لم ييأس، فقد خاف من نجاح ذلك الموظف الواثق من نفسه للغاية، فى إثناءها عن ذلك. فعاد قائلاً، إنـها تريد العودة إلى وطنها، فقد جربت العيش فى إسرائيل لمدة تسعة أشهر ولم تنجح التجربة "(3).

لقد كان إيمانه بفكرة العودة وفشل بوتقة الانصهار دافعاً قوياً لمصاحبة هذه الفتاة فى رحلة عودتها إلى وطنها دون مقابل:

" تراجع مولخو فجأة، إننى أجادل بلا طائل، إذ إنه صادق، وأنا أعكس قلقى وخوفى عليها أيضاً بلا طائل "(4).

ويعلق أبرا هام بلفان على مساعدة "مولخو" لتلك الفتاة الروسية بقولـه: " إن المساعدة التطوعية التى يقوم بها "مولخو" لتلك الفتاة التى ترغب فى النزوح عن إسرائيل، تبرز عدة نقاط أخرى فى عالمه. فيبين لنا موقفه هذا رأيه فى النزوح. وفى مقابل زوجته التى تنقد بمرارة كل ما يحدث فى إسرائيل، فهو يشعر بأن إسرائيل هى وطنه. ولم يشعر أنه نبت غريب فى هذا المكان، بل إنه يقبل الحياة فى إسرائيل قبولاً طبيعياً ؛ لأنه ولد فيها، وتأصلـه هذا يمنحه الثقة فى التعامل بسماحة مع كل من لا يشعر بإسرائيل كوطن. . . ولكنه يبذل كل ما فى وسعه من أجل مساعدة هذه الفتاة فى عودتها إلى وطنها روسيا. كما

(1) نفس المرجع، (ص292).
(2) نفس المرجع، (ص293).
(3) نفس المرجع، (ص286).
(4) نفس المرجع، (ص287).

أن موقفه من النزوح يبين لنا نقطة أخرى تتعلق بزوجته أيضاً، ففى مقابل زوجته التى تؤمن بالمبادئ وتحاول التمسك بها، فإن "مولـخو" يؤمن بالحياة والبشر الذين على قيد الحياة، وبضرورة الاستجابة لتطلعاتهم، والتقليل من آلامهم " (1).

وربما يعكس ذلك موقف يهوشواع الحقيقى من موضوع (النزوح) أو الشتات فهو يقول: " إن أبراهام أبو الأمة ولد خارج فلسطين، وقد دعاه الرب أن يترك وطنه وبيت آبائه ليصل إلى أرض جديدة اختارها لـه الرب. . . لذا فإن مفهوم (نازح) ولد فى قصة أبراهام (إبراهيم). فاليهودى الأول هو المهاجر الأول والنازح الأول على حد سواء. وكذلك، فإن اليهودى، أى يهودى، يحمل فى داخلـه حالتين هما الـهجرة والنزوح على طول التاريخ " (2).

لقد عمد يهوشواع أيضاً إلى الإشارة فى هذه الرواية إلى افتقاد الصهيونية للبعد الإنسانى فى حركتها، حيث هدفت فقط إلى جمع شتات اليهود فى إسرائيل دون أن تدرك ما يشعر به الفرد المهاجر من وطنه إلى وطن آخر. ويبدو ذلك فى إشارة يهوشواع إلى الموظفين البيروقراطيين الذين لم يستطعوا فهم هذه الفتاة، ومعنى رغبتها فى العودة إلى وطنها، لدرجة أنهم يعرضون عليها الـهجرة إلى كندا أو أمريكا:

" إن البيروقراطيين لديهم غير مستعدين لاستيعاب مثل هذه العائدة. . ولكن لماذا يجب أن تعود إلى وطنها، فلتسافر إلى أمريكا أو كندا " (3).

كما حاول يهوشواع السخرية من شعارات الصهيونية على لسان "مولخو"، فهو يشير بصورة رمزية إلى عدم تكيف هذه الفتاة للعيش فى إسرائيل، باعتبار أنه مجتمع لم تتعود عليه، يجتمع فيه الشتات اليهــودى دون رابط بينهم، فهم يختلفــون فى الطباع والعادات واللغـة والجنس، وغير ذلك. فها هــو "مولخو" يصـرخ فى موظف الســفارة وهو يسخر من شـعار (المصير المشترك) الذى روجت لـه الصهيونية:

" كان من الصعب عليها تحمل حرارة الجو فى إسرائـيل، حاول "مولخو" أن يفسر الأمر. لقد تعرضت لصيف قاس هذا العام. . . فلتنظر إليها، بأى مفهوم يمكن أن تكون يهودية؟ هل بالمفهوم البيولوجى؟ إنه لأمر مضحك. وضحك "مولخو" دون أن يعى ما الذى يضحكه وواصل حديثه، ... لا تتحدث معى الآن

(1) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص122ـ123).
(2) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص31).
(3) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص288).

عن المصير المشترك، فما معنى المصير المشترك؟ وتحمس "مولخو" قائلاً... لا يوجد مصير مشترك "(1).

وهكذا اكتملت حلقة اقتناع "مولخو" بإعادة هذه الفتاة إلى بلدها، وكان إصراره على ذلك يقابلـه إصرار من " نينا " نفسها. لقد حملت معها فى هذه الرحلة الشاقة، من إسرائيل إلى فيينا إلى برلين إلى روسيا فى النهاية صندوقاً كبيراً ضخماً وضعت فيه كل أمتعتها، على الرغم مما كان يسببه لـهما من مشكلات فى أثناء الرحلة:

" تضافرت قواهما لرفع الحقيبة على الرف الذى يعلو مقاعدهما "(2).

وعلى مدار الرحلة كلـها بالغ يهوشواع كثيراً فى حجم هذه الحقيبة، ربما كان يريد أن يبين لنا مدى إصرارها على عدم العودة إلى إسرائيل، لاسيما وقد حملت معها ملابسها الخاصة بكل فصول السنة، الخريف والشتاء والربيع والصيف:

" وكما هو متوقع، لم يكن فى الحقيبة شىء غريب، فقط ملابس امرأة شتوية، وخريفية وصيفية، وربيعية "(3).

" تضافرت قواهما وجذبا الحقيبة إلى المصعد، ومن هناك حملاها محدثين ضجيجاً إلى المطبخ "(4).

وهكذا، يتبين إصرارها على مدار الرحلة، منذ البداية أنها سوف تنجح فى النهاية. وبالفعل تنجح " نينا" تلك الفـتاة النازحة، كما أطلق عليها "مولخو"، فى العودة إلى وطنها روسيا:

" نازحته الصغيرة، كما عاد وأطلق عليها فى داخلـه "(5).

" لقد سيطرت عليها الرغبة فى العودة إلى وطنها "(6).

اتصلت " نينا" من شرق برلين لتبلغه بأن الأمور تسير بإيجاب ولا داعى للقلق، لأنهم قبلوها "(7).

وهكذا، تنجح تلك الفتاة فى العودة إلى وطنها بعد رحلة شاقة أمضتها بين موظفى السفارات فى فيينا وبرلين ومنها إلى روسيا التى أجرت منها مكالمة تليفونية مع أم زوجته لتبلغها بهذا النجاح:

---

(1) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص288).
(2) نفس المرجع، (ص302).
(3) نفس المرجع، (ص336).
(4) نفس المرجع، (ص336).
(5) نفس المرجع، (ص307).
(6) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص312).
(7) نفس المرجع، (ص335).

" اتضح أن الفتاة اتصلت بها فى الظهيرة من الاتحاد السوفيتى وحكت لـها عن كل شىء "(1).

ولم يكن هذا فقط انتصاراً لـها ضد مبدأ عدم العودة إلى بلاد الشتات الذى أرسته الصهيونية، بل كان أيضاً انتصاراً ونجاحاً لمولخو الذى ساعدها وسافر معها وطار فرحاً بعودتها إلى وطنها وبنجاحه فى المهمة التى بعثته فيها أم زوجته:

" لقد أرسلته فى مهمة قصيرة ونجح فى تنفيذها، وهو الآن فى شوق لأن يوضح لـها، إلى أى مدى كان هذا نجاحا غير متوقع "(2).

ويمكن القول، إن يهوشواع قد بيّن لنا كيف تحطمت بوتقة الانصهار عبر النزوح عن إسرائيل والرجوع إلى الوطن الحقيقى، وكيف تحطمت إحدى مبادئ الصهيونية بعدم العودة إلى بلاد الشتات مرة أخرى، وكيف فشلت الصهيونية فى صهر جموع اليهود داخل إسرائيل. ونجح "يهوشواع" إلى حد كبير فى التعبير عن هذا الفشل الذى حالف الصهيونية بتأييد معظم شخصيات الرواية لـهذا النزوح فى تأكيد منهم على جدية العودة، وعدم جدوى العيش فى إسرائيل، بعدما تفاقمت المشكلات وتعرت الحقيقة. وهى حقيقة يؤكد عليها الناقد الإسرائيلى أبرا هام بلفان بقولـه: " أبلغت والدة مولخو، هى الأخرى، ابنها فى رغبتها أن يصاحب نينا فى رحلتها إلى فيينا، حيث إنها لم تتأقلم مع الوضع فى إسرائيل، ولديها رغـبة جامحة فى العودة إلى وطنها. وبذل مولخو مجهوداً كبيراً فى إنهاء هذه المهمة بنجاح، ربما لخوفه من أن يدفعوه للزواج منها إذا بقيت فى إسرائيل "(3).

ويوضح لنا بلفان اتفاق "نينا" مع زوجـة "مولخو" المتوفاة فى نقدهما للمجتمع الإسرائيلى، إلا أن "نينا" تنجح فى النزوح من إسرائيل بعكس زوجة مولخوالتى اكتفت بالنقد والتجريح: " هناك نقطة اتصال بينهما، وهى النقد اللاذع ضد إسرائيل. فقد كانت زوجـــة "مولخو" تنتقد إسرائيل بصورة مستمرة، بينما لم تكتف "نينا" بالنقد بل أقدمت على النزوح وتركت البلاد، لقد عبرت عن حريتها فى إصرارها على العودة إلى موطنها الأصلى "(4).

وهذا الموقف يتفق مع نظرة يهوشواع إلى الشتات على أنه مصير حتمى لليهود منذ نشأتهم على وجه الأرض، حيث يقول: " لقد خلق اليهود فى الشتات. فهل هذه حقيقة

(1) نفس المرجع، (ص345).
(2) نفس المرجع، (ص340).
(3) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص113).
(4) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص113).

أدركناها جيداً بكامل معناها؟ إن الشعب اليهودى لم يخلق فى بلاده. والعلاقة الجوهرية والأولية بين الشعب والوطن لم تكن طبيعية بالنسبة لليهود. لقد تم إعدادنا كشعب فى الشتات، وتغلغل الشتات داخل تكويننا. وأضـــف إلى ذلك، أن التوراة نزلـت على هذا الشعب فى البرية وليست فى فلسطين " (1).

وهكذا، حاول يهوشواع أن يبين لنا أسباب فشل الصهيونية فى تجميع اليهود داخل إسرائيل. فالقوى الوراثية لدى اليهود بالنسبة للشتات أكبر من أن تتجاهلـها الصهيونية، فهو يعيب على الصهيونية ترسيخها لمبدأ ضرورة عيش كل اليهود داخل إسرائيل، لأنه مبدأ لن يتحقق، إذ يقول: " من يعتقد أن الشعب اليهودى كلـه يجب أن يعيش داخل إسرائيل، والصهيونية بالنسبة لـه لم تنته بعد، ومن يقول ليس هناك حل آخر للشعب اليهودى إلا العيش فى إطار الصهيونية. فأنا أقول لـه، لقد انتهت الصهيونية بالنسبة لى. لأننى لا أظن أن كل الشعب اليهودى يجب أن يهاجر إلى إسرائيل " (2).

(2) الصراع الدينى العلمانى:

بدأت أبعاد هذا الصراع بين اليهود الدينيين والعلمانيين مع نشأة حركة "الـهسكالاه" التى هدفت إلى تحطيم النفوذ الدينى وسيطرته واستبداده على النفس اليهودية من الداخل، وإلى تحطيم أسوار " الجيتو " الشاهقة التى كانت تفصل بين اليهود ووجوه الحياة العلمانية فى الدول التى كانوا يعيشون فيها.

" ومن أجل تحقيق هذا الـهدف وتحطيم الأسوار الداخلية للجيتو ولبناتها الدينية، كان تركيز حركة (الـهسكالاه) ودعاتها من الفلاسفة والأدباء على ضرورة تغير نظام التعلىم الدينى والمزج بينه وبين التعلىم العصرى القائم على منجزات العقل فى العلوم الطبيعية والإنسانية، وكان من الطبيعى أن تنمو حركة (الـهسكالاه) وأن تصل، فى النهاية، إلى حد المواجهة الكاملة مع السلطة الكهنوتية وسيطرتها على كل وجوه الحياة اليهودية. . " (3).

ومع انتقال اليهود من بلاد الشتات إلى فلسطين، انتقل معهم هذا الصراع واتخذ أبعاداً مختلفة. وقد شهدت السنوات الأخيرة نمواً كبيراً فى أعداد اليهود الدينيين ونفوذهم، وبخاصة بعد حرب يونيو (1967)، الأمر الذى جعل اليهود العلمانيين يشعرون بأن الخطر يتهددهم واقترح بعضهم اقتسام إسرائيل بين الطرفين. "وترك 10٪ من اليهود

---

(1) أ. بيت. يهوشواع: " بزخوت هانورماليوت " (بفضل الطبيعية)، مرجع سابق (ص32).
(2) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت "(أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (ص97).
(3) د. إبراهيم البحراوى: الدين والدنيا فى إسرائيل، كتاب الـهلال، مايو 1998، العدد 569، (ص10).

العلمانيين القدس فى عام (1997) بسبب تدهور العلاقة مع اليهود المتطرفين " [1]، حيث تشهد القدس تركزاً يهودياً دينياً، بينما تشهد تل أبيب تركزاً يهودياً علمانياً.

" وربما للمرة الأولى على مدى هذه الفترة، منذ قيام دولة إسرائيل وحتى الآن، يرتبط القلق بالانقسام الداخلى أكثر من الصراع الخارجى، ويظهر ذلك مثلاً، من استطلاعات حديثة أظهرت أن 60٪ يرون الخطر الأكبر فى التصدعات الداخلية، مقابل 30٪ فقط يعدون الصراع الخارجى هو الأخطر " [2].

وهكذا، أصبح الانقسام اليهودى الدينى العلمانى من أكثر القضايا التى تقلق المجتمع الإسرائيلى، وبدأ يفرض تساؤلات عديدة تتردد بقوة داخل إسرائيل وخارجها منها، على سبيل المثال: هل إسرائيل دولة يهودية أم يهودية ديمقراطية؟.. ومن الإسرائيلى؟ هل هو يهودى خالص، أم إسرائيلى يهودى، أم يهودى إسرائيلى، أم إسرائيلى فقط؟ خاصة وأن اليهود الدينيين المتشددين فى إسرائيل وخارجها يرفضون الاعتراف بإسرائيل كدولة علمانية.

وقد أصبحت أشكال الصراع الدائر بين اليهود الدينيين والعلمانيين فى إسرائيل من المظاهر التى تميز طبيعة الواقع اليهودى فى إسرائيل والتى تعرض مظاهرها خارج إسرائيل: " بدأت الصحف وكل شبكات التليفزيون فى أمريكا تذيع وتنشر عشرات المقالات والأفلام يومياً حول احتفال إسرائيل بمرور خمسين عاماً على إعلان إنشائها كدولة، فإذا بها جميعاً وبلا استثناء تقريباً، تتحدث عن هذه الاحتفالات بلـهجة جديدة، يملؤها القلق على ما يجرى فى إسرائيل من انقسامات وصراعات دينية وعقائدية، وإذا بنا نشاهد على شبكات التليفزيون الأمريكية مناظر الاقتتال بين الجماعات الدينية اليهودية المتطرفة من جانب، واليهود العلمانيين من جانب آخر... ورحنا نشاهد كل ليلة كيف أن هؤلاء المتزمتين والمتطرفين من اليهود اقتطعوا جزءاً من مدينة تل أبيب، وأقاموا سياجاً حولـها، لمنع المواطنين من ركوب السيارات يوم السبت، على اعتبار أنه خروج على الديانة اليهودية، وأقام بعضهم مكبرات الصوت يذيعون فيها خطبهم المديحة فى البيوت التى حولوها إلى معابد، ويرد عليهم العلمانيون بإقامة صالات " للديسكو " والرقص والملاهى الليلية، ويعلقون على أبوابها مكبرات الصوت لكى تطغى على الخطب الدينية، ويبدأ الطرفان فى تبادل اللكمات والضرب بالأيدى والعصى وتتدخل الشرطة يائسة لمحاولة التفريق بين الجانبين .... ووصل الصراع إلى تهشيم السيارات وحرق بعضها، وتبادل إلقاء القاذورات

([1]) عطية عيسوى: إسرائيل تتساءل من أنا، الأهرام، 2/ 5/ 1998 (ص5).
([2]) د. وحيد عبد المجيد: حدود الانقسام الداخلى فى إسرائيل، مركز الدراسات الاستراتيجية والسياسية، الأهرام، 8/ 5/ 1998، (ص18).

والمخلفات البشرية علناً، إلى حد جعل " مناحم فريدمان " ـ أحد علماء الاجتماع فى إسـرائيل – يقـول (إننا أصبحنا نعيش على الجرف، ولم نعد نطيق بعضنا بعضا) "[1].

وتعد حرمة يوم السبت• من أشد القضايا الخلافية بين الدينيين والعلمانيين فى إسرائيل : " وما زالت المـعركة الأكثر احتداماً، فى إطار هذا الانقسام تدور حول حرمة يوم السبت، ولعل آخر مظاهرها هو حملة المتدينين ضد المجتمعات التجارية الكيبوتسية التى صار معتاداً أن تعمل فى ذلك اليوم، وحملة العلمانيين لإلغاء قانون محلى فى تل أبيب يحظر فتح أماكن التسلية والمطاعم فى اليوم المتنازع عليه " [2].

لقد وصل الأمر إلى تقسيم الأحياء إلى دينية وعلمانية، حيث تصدرت حى " باردیس حانا " لافتة تقول : (إنكم الآن تدخلون حياً دينياً، وعليكم أن تتحشموا فى ملابسكم وأن تحترموا شعائر السبت)، فإذا ببعض سكان الحى يعلقون لافتات على بيوتهم تقول (إن حى " باردیس حانا " يفخر بأن يكون علمانياً) .

ويشدد و" واتنبرج " ، الكاتب فى صحيفة " واشنطن تايمز " ، على الانقسامات، بل العداوة السافرة بين اليهود المتشددين الدينيين والغالبية العظمى من السكان اليهود العلمانيين ... ويروى الكاتب ما ذكرته كل وسائل الإعلام عما يحدث، من فرقة الرقص الشعبية التى هاج ضدها المتدينون المتشددون، لأن الراقصات فيها يخلعن ملابسهن الداخلية، فاضطروهن للرقص بسراويل طويلة، إلى آخر الروايات الأخرى مثل فرض الرقابة على فيلم تســـجيلى لأنه أظهر الجانب الآخر لما حدث فى سنة (1948)، بالنسبة للجانب الفلسطينى [3].

وهكذا، اتخذ الانقسام الدينى – العلمانى بين اليهود الدينيين واليهود العلمانيين صورة مخيفة ومزعجة بالنسبة للمجتمع الإسرائيلى، وأظهر هذا الانقسام مدى الانفصال التام والواقع الدينى الذى يعيش فيه اليهود المتشددون عن الواقع العام للمجتمع الإسرائيلى

([1]) محمد حقـى : الصراع الداخلى فى إسرائيل على شاشات التليفزيون فى أمريكا، صحيفة الأهرام، 12/ 5/ 1998، (ص6)

(•) تعد حرمة يوم السبت من أشد القضايا الخلافية بين المتدينيين اليهود والعلمانيين، فهناك بعض المحظورات الخاصة بيوم السبت بالنسبة لليهود المتدينيين، والذى بموجبها يعتبرون ممارستها من قبل اليهود العلمانيين بمثابة تدنيس لحرمة ذلك اليوم. ففى هذا اليوم يحظر البيع أو السفر أو الخروج من البيت، ويحظر كذلك ايقاد المصابيح الكهربائية أو مشاهدة التلفاز أو سماع الراديو أو استخدام السيارات. وفى هذا اليوم يعارض اليهود المتدينون المتشددون (الحريديم) فتح دور السينما أو الكازينوهات أو المطاعم. (انظر : يشعياهـو ليفمـان، العلاقـات بين المتدينيـن والعلمانيـن فى = = إسرائيل، ترجمة : د. محمد محمود أبو غدير، مراجعة وتقديم : د. إبراهيم البحراوى، المجلس الأعلى للثقافة المشروع القومى للترجمة، القاهرة، 2000).

([2]) د. وحيد عبد المجيد : مرجع سابق، (ص18).

([3]) محمد حقى : الصراع الداخلى فى إسرائيل على شاشات التليفزيون فى أمريكا، مرجع سابق، (ص6).

العلمانى، ومما يزيد من هذا الانفصال التام، أن اليهود الدينيين المتشددين لا يخدمون فى الجيش الإسرائيلى ولا يدفعون الضرائب، لأنهم يتفرغون لدراسة التوراة طوال اليوم ويحصلون على مبالغ باهظة لمدارسهم غير المعونات الاجتماعية الأخرى (•).

ويمكن القول أيضاً، " إن القوى الدينية فى إسرائيل تمثل مروحة واسعة من الاتجاهات تتراوح بين تأييد الصهيونية العلمانية فيما عرف بـ (الصهيونية الدينية) وبين (معاداة الصهيونية)، وبين السلفية المغالية فى التشدد وتكفير الدولة والانعزالية (الحريديم)، إلا أنها تشترك جميعاً فى طرح تعريف اليهودية لتكون مجرد انتماء أو لمجرد الانتماء. إن المعيار لدى هذه القوى سواء حزبية أو غير حزبية، هو التقيد الصارم بالعبادات والتأكيد على الالتزام بالشريعة اليهودية (الهالاخاه)، والتعبير عن الإيمان وسيادة الطقوس والتقيد بأحكام المذهب الدينى الذى يتمسك به زعماؤها الروحانيون فيما يتصل بقضايا الحياة " (□).

ومن هنا، يعد الصراع الدينى العلمانى داخل إسرائيل مظهرا من مظاهر تحطم بوتقة الانصهار داخل إسرائيل، عبرعنه يهوشواع بصورة ساخرة انتقد فيها اليهود الدينيين، محاولاً إبراز الصهيونية كسبب فى احتدام هذا الصراع، ومؤكداً على فشلها فى تجميع الشتات اليهودى داخل المجتمع الإسرائيلى.

وقد أكد مناحم برينكر على أن الصهيونية قد تكون سبباً فى تقويض هذا المجتمع لدورها فى هذا الصراع، إذ يقول: " إن المشاكل الوجودية الصعبة لإسرائيل هى أيضا مشاكل صهيونية... فكيف ستعيش فى إسرائيل الثقافة اليهودية العلمانية والثقافة اليهودية الدينية، كل منهما بجوار الأخرى، دون أن يقوضا المجتمع الإسرائيلى؟ " (□).

(•) تمتد القضايا الخلافية بين المتدينين اليهود والعلمانيين فى إسرائيل لتشمل الكثير من أوجه الحياة التى تشتد حولها الصراعات. فبالنسبة للملبس، لابد وأن ترتدى المرأة ملابس طويلة وتغطى رأسها، أما الرجال فيرتدون البالطو الأسود الطويل ويطلقون لحاهم وهو مالا يفعله اليهود العلمانيون. وبالنسبة للطعام، فالشريعة اليهودية تحظر على اليهودى تناول طعام غير كاشير أو تناول طعام طهى فى أوعية سبق استخدامها فى إعداد طعام غير كاشير وهو ما لا يفعله اليهود العلمانيون. وبالنسبة للطهارة، تمنع العلاقات الزوجية على امتداد 12 يوماً على الأقل خلال الدورة الشهرية للمرأة، وفى نهاية هذه الفترة فإن على المرأة أن تغطس فى بركة مياه التطهر (مغطس التطهر)، ومن مظاهر اتساع الهوة بين المتدينيين اليهود والعلمانيين، يدرس أبناء اليهود المتدينيين فى مدارس دينية منفصلة وينتمون إلى حركات شبابية دينية منفصلة. وهناك فى إسرائيل مؤسسات مختلفة، مثل = = البنوك، تقوم بتشغيل عناصر دينية فقط. كما يطالب الحريديم بتخصيص شواطىء خاصة بالرجال وأخرى للنساء على غرار مايحدث فى المعابد التى يوجد بها حواجز تفصل بين النساء والرجال. (انظر: يشعياهو ليفمان، العلاقات بين المتدينيين والعلمانيين فى إسرائيل، مرجع سابق).

(□) د. رشاد عبدالله الشامى: القوى الدينية فى إسرائيل بين تكفير الدولة ولعبة السياسة، مرجع سابق (ص9).

(□) مناحم برينكر: " احارى هاتسيونوت " (بعد الصهيونية)، مجلة سيمان قريئاه، مرجع سابق، (ص27).

وقد عبر يهوشواع فى رواية (مولخو)، عن الانقسام الواقع بين اليهود الدينيين والعلمانيين فى أى تجمع يحدث بينهم:

" جلس عدد منهم بالطاقيات السوداء فى انتظار وقت الصلاة "(1).

" قام عدد من المسنين فى صمت للمشاركة فى الصلاة، بينما هز العلمانيون رءوسهم مباركين "(2).

وقد اتخذ الانقسام الدينى العلمانى بين اليهود الدينيين والعلمانيين صورة مخيفة ومزعجة بالنسبة للمجتمع الإسرائيلي، وأظهر هذا الانقسام مدى الانفصال التام للواقع الدينى الذى يعيش فيه اليهود المتشددون عن الواقع العام للمجتمع لإسرائيلي العلمانى. وأصبحنا نشاهد صورا عديدة من صور الاقتتال والضرب باللكمات بين اليهود الدينيين واليهود العلمانيين تدور كلـها حول حرمة يوم السبت، وقد عبر يهوشواع عن سخريته من هذا الوضع، فهناك من كان يحذر مولخو من السفر فى هذا اليوم خشية أن يرشق بالحجارة من اليهود الدينيين:

" استجاب "مولخو " قائلاً، إننى مستعد للحضور، ربما يوم السبت. في يوم السبت؟ اندهش زوجها مرة أخرى. . . فى يوم السبت سيقذفونك بالحجارة هناك "(3).

وهكذا أصبح السفر فى هذا اليوم بالنسبة لليهودى الإسرائيلى العلمانى بمثابة مجازفة قد تعرض من يقدم عليها من اليهود للخطر. ولكن "مولخو " لا يعبأ بهذا ويقرر السفر فى هذا اليوم إلى القدس ليجد المدينة وقد سادها سكون تام:

" قـرر السـفر إلى القدس يوم السبت. . . ووصل القدس قبيل ظهيرة ذلك اليوم. . . ثم خرج في الثانية والنصف، ليجد المدينة وقد سادها السكون التام الخاص بيوم السبت "(4).

ويشير يهوشواع كذلك فى هذه الرواية إلى ما يحدث للسيارات من تحطم أثناء مرورها فى يوم السبت، حيث يعتبر اليهود الدينيون أن ذلك تدنيساً لحرمة ذلك اليوم. فها هو "مولخو" ما أن يلمح أحـد الأشخاص يرتدى القبعة الدينية حتى يبطل محـرك سيارته خشية أن تصاب بحجر :

---

(1) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص35).
(2) نفس المرجع، (ص35).
(3) نفس المرجع، (ص203).
(4) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص260).

" ولكنه ما أن لمح رجلاً يرتدى طاقية يتجه نحوه، حتى أوقف محرك الســيارة على الفور. وقرر أن يسير مترجلاً فى هذا المكان، حتى لا يتعرض لخطر قذف سيارته بحجر "(1).

لقد أصابت حرمة ذلك اليوم "مولخو" بالملل وهو في القدس، وجعلته يسخر من ذلك المصعد الذي يعمل أتوماتيكيا في ذلك اليوم دون الضغط على مفاتيح لتشغيلـه، وهو ما جعلـه يتوقف فترة طويلة في كل طابق حتي إن لم يكن هناك أشخاص يريدون استخدامه:

" سمع المصعد يزأر من فوق رأسه، ينزل ثم يتوقف، ينزل ثم يتوقف... ثم يفتح الباب أتوماتيكياً، حيث كان المصعد يوجه للحركة يوم السبت دون الحاجة للضغط على مفاتيح... ووقف "مولخو" داخل المصعد صامتاً، وشعر أنه أحمق وهو ينتظر الباب طويلاً حتي ينغلق، وفى النهاية سمع صفيراً وانغلق الباب وصعد المصعد طابقاً آخر. وكان وقت الانتظار طويلاً للغاية، كما لو أن الجهاز الآلى للمصعد صمم من أجل أشخاص معاقين أو مرضى سوف يدخلون ويخرجون فى بطء كبير "(2).

ويتساءل "مولخو "فى سخرية عن مغزى ما يحدث فى المصعد من الناحية الدينية:

" وصعدت بمصعدكم الغريب والمضحك، وأنا مازلت لا أعرف كيف يفسرون هذا من الناحية الدينية؟ وصدرت منه ضحكة خفيفة "(3).

ولم يسخر يهوشواع من هؤلاء الدينيين على لسان "مولخو" فحسب، بل إنه يشير إلى مدى تزمتهم وحرصهم الدقيق على عدم تدنيس يوم السبت، " فأورى"، أحد الشخصيات الدينية فى الرواية، يمنع زوجته " يـعراه " من إشعال سيجارة فى هذا اليوم دون أن ينطق بكلمة:

" دست سيجارة فى فمها، وأخذت تبحث عن ثقاب، ولكن زوجها أمسك يدها برفق ليمنعها، دون أن ينطق بكلمة "(4).

كما يعبر يهوشواع كذلك عن مبالغة الحاخامات فى تطبيق الشريعة اليهودية فى إسرائيل وأثر ذلك على مدى الانقسام الفاعل بين اليهود الدينيين والعلمانيين، وفى إشارة إلى تدخل الحاخامات فى كافة الشئون الحياتية والداخلية للفرد اليهودى، يقول يهوشواع، فى سخرية، على لسان "مولخو" فى الرواية:

---

(1) نفس المرجع، (ص260).
(2) نفس المرجع، (ص261).
(3) نفس المرجع، (ص262).
(4) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص262).

" هل سمح لكم الحاخام يودل بالتدخين هكذا قبل النوم، فاجأها بدعابة خفيفة "(1).

ولم يتوقف الأمر عند هذا فحسب، بل إن الدينيين اليهود يخضعون لأوامر الحاخامات بكل دقه، " فيعراه " لا يوجد لديها تليفزيون فى بيتها، فقد أوصاهم الحاخام بذلك، لأنه يكرهه ويسأمه:

" حـقاً، لا يوجد لديكم جهاز تليفزيون فى منزلكم. لأن حاخامهم يكره ويسأم، بالفعل، التليفزيون بصفة خاصة "(2).

ومن مظاهر هذا الصراع بين اليهود الدينيين واليهود العلمانيين، النزاع بينهم حول نزول البحر بملابس سوداء، حتى وصل الأمر إلى حد تخصيص الحكومة الإسرائيلية شواطئ خاصة باليهود الدينيين فقط، ويشير يهوشواع إلى ذلك الرداء وهو يصف بعض الأطفال الدينيين فى البحر:

" لاحظا فى تلك الأثناء تفرق مجموعة من الصبيان بمعاطف سوداء بين الأمواج "(3).

ويصف يهوشواع اليهود الدينيين، فى هذه الرواية، بأنهم أناس قساة فى معاملاتهم، علاوة على أنهم ينجبون الأطفال بكثرة، ويطلبون من " أورى " اليهودى المتدين الزواج بامرأة جديدة شريطة أن تنجب أطفالا، ذلك لأن " يعراه " زوجته لم تنجب بعد وهى فى الثانية والخمسين من عمرها، وتعددت مرات فشلـها فى الحمل والإجهاضات المستمرة:

" إنهم أناس قساة لا يستلـهمون مبادئهم من الكتب بل مما هو شفوى، لقد طالبوه لعدة سنوات بالزواج من امـرأة أخرى شريطة أن تنجـب أطفـالا ؛ لأنـــه بـدون

أطفال يصبح عالمه معيباً، وفهمه ناقصاً "(4).

" هل مازالت تنزف من مرات الحمل الفاشلة والإجهاضات الكثيرة(5).

ويفسر الناقد الإسرائيلى يوسف أورن مرات الحمل الفاشلة على أنها أيديولوجيات لم يستوعبها المجتمع الإسرائيلى، إذ يقـول: " يجب أن نـفهم مغزى مرات الحمل الكثيـرة

(1) نفس المرجع، (ص232).
(2) نفس المرجع، (ص232).
(3) نفس المرجع، (ص230).
(4) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص192).
(5) نفس المرجع، (210).

الفاشلة لـ (يعراه)، حيث ظهرت هذه المرات كمثال للأيديولوجيات التى لم يستوعبها المجتمع الإسرائيلى، لأنها جميعاً تعاليم تعرضت للإجهاض فى منتصف الحمل "(1).

أما أبراهام بلفان فإنه يصف شخصية "أورى" بالفوضوى الذى ينصاع إلى مطالب هؤلاء الدينيين ويقرر الزواج ؛ حيث يقول: " إن "أورى" زوج "يعراه" إنسان فوضوى، يطالبه الدينيون المتشددون الذين يتردد فى السير على دربهم، بالزواج من امرأة شابة تستطيع أن تنجب لـه. ففى الوقت الذى يشرح فيه لمولخو بأنه لم يخطر ببالـه أن يترك " يعراه " قبل أن يدبر لـها أمورها، فهو يقرر الزواج "(2)، بينما نجد مولخو، فى الرواية، يتعجب من ذلك الإخلاص لعالم ملئ بالدينيين الذين يباركون إنجاب الأطفال:

" لقد كرست نفسها لكى تزيد شوقهم وانتماءهم لذلك العالم المكتظ الخاص بالدينيين المرزوقين بالأطفال "(3).

وهكذا، حاول يهوشواع أن يبين لنا مدى الانقسام الحاد فى المجتمع الإسرائيلى، وبخاصة أن شوكة اليهود الدينيين تزداد فى السنوات الأخيرة بزيادة عددهم، وتحول الكثيرون من اليهود العلمانيين إلى دينيين كما يشير فى الرواية:

" إننى مسـافر إلى أصدقاء قدامى لى فى المدرسة أصبحوا مؤخراً متدينين للغاية "(4).

وهـكذا أيضاً، يتبين لنا مظهر آخر من مظاهر تحطم بوتقة الصهر داخل المجتمع الإسرائيلى، ويعد ذلك الصـراع من أخطر ما يهدد المجتمع الإسرائيلى، نظراً لخطورته الشديدة ؛ حتى إننا نجد اليهود الدينيين ينقسمون على أنفسهم أيضاً، فهناك الجماعات اليهودية الدينية المتشددة (الحر يديم)، و الجماعات اليهودية الدينية المتطرفة، فالأولى تسعى إلى خلق " جيتو " يهودى داخل الدولة، يحافظ على خصائص يهودية الشتات من حيث الثقافة فى اللغة والتشدد فى تطبيق الشريعة اليهـودية، وتقف موقفاً معادياً من الصهـيونية العلمـانية. أما الثانية ـ الجماعات اليهودية الدينية المتطرفة ـ فهى من أصحاب المواقف الصهيونية السياسية القومية المتطرفة التى تسعى لاستيطان الأراضى المحتلة باعتبارها ضمن حدود الوعد الإلـهى أو ضمن الميراث الدينى و التاريخى لليهود.

---

(1) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص33).

(2) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص110).

(3) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص210).

(4) نفس المرجع، (ص207).

ومن هنا، يمكن القول، إن الصهيونية بنفسها قد أسهمت فى هذا الانقسام بين اليهود الدينيين، وقامت بالدور البارز فى قيادة هذا الانقسام، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى الصدام مع اليهود العلمانيين، ليجلس المجتمع الإسرائيلى فوق فوهة بركان من شأنه أن ينفجر فى أية لحظة. وبالتالى ؛ فقد أخفقت الصهيونية فى وعودها بالتحام اليهود وتجميعهم داخل حدود آمنة لدولة يهودية ازدادت صراعاتها الداخلية وتزايدت مع مرور الوقت، وأصبحت مصدراً للتهديد المستمر والمتعاظم على مر السنين.

(3) الصراع الإشكنازي السفارادى داخل إسرائيل:

يأتى الصراع الدائم بين اليهود الغربيين واليهود الشرقيين داخل المجتمع الإسرائيلى ـ كما بيّنا سابقاً ـ كإخفاق جديد من إخفاقات الصهيونية، ومظهر من مظاهر تحطم بوتقة الصهر التى تحدثت عنها الصهيونية، وهدفت من خلالها إلى إذابة جموع اليهود داخل كيان يهودى واحد. إلا أن اختلاف الثقافات والحضارات بين الجماعات اليهودية المتجمعة داخل الدولة يقف حائلاً أمام تحقق هذا الهدف، ليضيف إلى الصهيونية انتقاداً جديداً عبر عنه الكثير من الأدباء والمفكرين الإسرائيليين في أعمالهم المختلفة.

ويمكن القول، إن الصهيونيين الأوائل أرباب الحضارة الغربية، الذين قامت الحركة الصهيونية على أيديهم، كان لهم دور بارز في تفاقم هذا الصراع، نظراً لتفاخرهم الدائم بأن الدولة قامت على عاتقهم فقط، مما حدا باليهود الشرقيين إلي الشعور بالدونية تجاههم، وبأنهم جيل مكمل للكيان اليهودي داخل الدولة الجديدة.

لقد بدا هذا الصراع واضحاً في احتفالات إسرائيل بمرور خمسين عاماً على قيامها. فكانت مظاهر الاحتفال تتحرك في اتجاهات مختلفة لتلقي الضوء على صور عديدة من صور هذا الاحتفال، حيث حرصت كل طائفة من الطوائف اليهودية المختلفة على إبراز بعد خاص تتمتع به ويرجع إلي البلد التي كانت تعيش فيه، فإذا بنا نجد احتفالات خاصة باليهود المغاربة، على سبيل المثال، واليهود الروس، وكافة الطوائف اليهودية المختلفة، ليبرز أمامنا في النهاية مدي انقسام ذلك المجتمع على نفسه فى صورة جماعات طائفية تحرص كل جماعة منها على هويتها الخاصة، ولا تسمح مطلقاً بطمس تلك الهوية، حتى وإن كان ذلك فى صالح الدولة التى تعيش فيها، وإن كانت هى الملاذ الوحيد لهم.

إن الصهيونية بما طرحته من أهداف منذ الإرهاصات الأولى لتكوينها، لم تضع فى الاعتبار تلك المعضلة، وظنت باليهود الشرقيين سوءاً، وبأنهم سيكونون أفضل وضعاً وهم يؤدون دورهم الهامشى فى الدولة، ورفعت شعار البوتقة، وإذا بتلك الجماعات اليهودية

تتناحر فيما بينها للمحافظة على هويتها الخاصة، ولتتفاخر كل جماعة بإنجازاتها الفردية فحسب.

ويعبر " شلومو بن عامى " المغربى الأصل، والقيادى فى حزب العمل الإسرائيلى، عن ذلك الوضع الـهامشى الذين يعيشه اليهود السفاراديم فى لقاء معه بقولـه: " جئت من مدينة طنجة وعمرى اثنا عشر عاماً، إننى مجنون بهذه المدينة... كما يتحدث عن (جرح الخمسينيات) الذى لا يزال مفتوحاً، عندما وصل وعائلته سنة 1955 إلى فلسطين ضمن موجة هجرة جماعية لليهـود الشرقيين، فرشـوهم بمادة الـ د.د.ت. ثم نقلوهم إلى (المعبراة) حيث (المشهد المأسوى) الذى (يمزق القلوب): مكان هو لا مكان ـ على حد تعبيرهـ واشتملت شهادته أيضاً على تجربته فى معسكر حركة العمل: (نحن فى الداخل ولسنا فى الداخل)، مضيفاً أن ابن الطوائف الشرقية لا يزال يجد صعوبة فى الحصول على الشرعية الكاملة لوجوده داخل هذا المعسكر. ويذهب بن عامى إلى القول، بأن هذه الطوائف توجه احتجاجها وسخطها نحو حركة العمل لا نحو الليكود، لأن هذه الحركة هى التى قادت عملية التحديث طوال ثلاثين عاماً من دون أن تصل باليهود الشرقيين إلى الطمأنينة والمساواة " (1).

وترجع " إيلا شوحط " هذا الوضع الذى يعيشه اليهود السفاراديم فى إسرائيل إلى الصهيونية، حيث تقول: " تزعم الصهيونية أنها حركة تحرر لجميع اليهود، ولم يوفر الأيديولوجيون الصهيونيون أى جهد فى محاولة جعل تعبيرى (اليهودى) و (الصهيونى) مترادفين فعلياً. لكن الصهيونية، فى الواقع، كانت أساساً حركة تحـرر لليهود الأوربييـن (وهذا الأمر كما نعلم مشكوك فيه)، وبصورة أكثر دقة لتلك الأقلية الصغيرة من اليهود الأوربيين القاطنين بإسرائيل فعلاً، ومع أن الصهيونية تزعم أنها تقدم وطناً إلى جميع اليهود، فإن ذلك الوطن لم يقدم إلى الجميع على المستوى نفسه، فقد جئ باليهود الشرقيين فى البداية إلى فلسطين لأسباب صهيونية أوربية خاصة. ثم جرى التمييز بينهم بصورة منهجية، من قبل الصهيونية التى بذلت طاقاتها ومواردها المادية بصورة مميزة، لمصلحة اليهود الأوربيين الدائمة، وللأذى الدائم لليهود الشرقيين " (2).

وتضيف " إيلا شوحط " قائلة: " بدأ التمييز العرقى ضد اليهود الشرقيين مع بداية استقرارهم. فلدى وصولـهم إلى إسرائيل وزعت مجموعات متعددة منهم عبر البلاد، على الرغم من إرادة البقاء معاً. العائلات فرقت، والمجموعات القديمة فتتت، والقادة التقليديون جردوا من مناصبهم. واليهود الشرقيون أسكنوا فى الغالب، فى (معبروت)،

(1) خالد عايد: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص104).
(2) ايلا حبيبة شوحط: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص106).

أى معسكرات انتقال، وقرى نائية ومستوطنات زراعية، وفى ضواحى المدن، ومنها ما أفرغ حديثاً من الفلسطينيين " (1).

وعن الوضع الاجتماعى الذى يعيشه هؤلاء اليهود السفاراديم فى إسرائيل تقول إيلا شوحط: " . . . وباعتبار اليهود الشرقيين قـوة عاملة ورخيصة، ومتحركة، وقابلة للتلاعب بها، فقد كانوا ضروريين للتطور الاقتصادى لدولة إسرائيل، فأصبح الكثيرون منهم عمال بناء بأجور منخفضة. ثم أدت الأرباح العالمية، الناشئة عن الأجور المتدنية، إلى توسع سريع لشركات البناء التى يديرها اليهود الإشكنازيم أو يملكونها. . . وتكشف الوثائق المنشورة مؤخراً الحجم الذى كان فيه التمييز سياسة محسوبة ميزت، عن قصد، المهاجرين الأوربيين وأوجدت، أحياناً، أوضاعاً شاذة يكون فيها اليهود الشرقيون المتعلمون عمالاً غير مهرة بينما يحتل الإشكنازيم الأقل تعلماً مواقع إدارية عالية " (2).

وتكشف لنا شوحط عن دخول النظام التعلىمى فى إسرائيل القائم على الفصل وعدم المساواة، دائرة التمييز ضد اليهود السفاراديم، " فللأشكنازيم، على العموم، ثلاثة أعوام من التعلىم أكثر مما للسفاراديم. وحضورهم فى المدارس العالية الأكاديمية يعادل 4ر2 ضعف، كما يبلغ خمسة أضعاف فى الجامعات " (3).

ويؤكد أفيشاى مرجليت أيضاً على هذه الأوضاع التمييزية بقولـه: " أربعة فى المائة فقط من اليهود المولودين فى إسرائيل من ذوى الأصول الشرقية يتجهون الآن إلى التعليم العالى، فى مقابل 15 فى المائة من اليهود المولودين فى إسرائيل من ذوى الأصول الإشكنازية " (4).

وقد عبر يهوشواع، باعتباره من اليهود الشرقيين، فى رواية (مولخو) عن ذلك التفاوت الرهيب فى المعاملة من قبل الدولة لليهود الشرقيين، وعن نظرة المجتمع الإشكنازى لليهود الشرقيين على أنهم جيل مساعد ومكمل لـهم، إذ يقول على لسان "مولخو":

" إنني سفارادي قديم، جيل خامس في البلاد، وأوروبا مازالت غريبة عنا " (5).

وإذا كان يهوشواع يؤكد على سفارادية "مولخو"، طوال الرواية، فإنما يؤكد على سفارادیته هو، لا سيما أن بعض النقاد الإسرائيليين يشيرون إلي التشابه الكبير بين أوصاف "مولخو" الخارجية وأوصاف يهوشواع نفسه. وإذا كان "مولخو" قد فرضت عليه الثقافة الغربية، فإن يهوشواع أيضاً قد فرضت عليه الثقافة الغربية فى حياته الخاصة، على الرغم من أنه يعتز بسفارادیته. " لقد ذكر يهوشواع في أحد مقالاته أن أمه لم تكن تنتمى

(1) ايلا حبيبة شوحط: اليهود الشرقيون فى إسرائيل، مرجع سابق، (ص109).
(2) انظر: ايلا حبيبة شوحط: نفس المرجع، (ص110ـ111).
(3) نفس المرجع، (ص 113).
(4) أفيشاى مرجليت: إسرائيل الأخرى، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد 36، خريف 1998، (ص129).
(5) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص68).

للسفاراديم القدامى فى القدس، مثل أبيه، بل هاجرت من المغرب إلى إسرائيل فى عام 1932 (ولم تشعر تجاه الطائفة السفارادية بإحساس خاص). ولكنها رأت أن تزرع أبناءها بشكل عملى وعاطفى (فى قلب البلاد التى تعج بالعالم الصهيونى الإشكنازى). وهكذا أرسل يهوشواع وأخته إلي مدرسة (رحافيا) الثانوية، ولم يرسلا إلى المدرسة " تحكمونى " (مدرسة الطائفة السفارادية بالقدس). وقد ذكر يهوشواع فى العديد من اللقاءات التى أجريت معه، أنه لم يعر اهتماماً لـهياج أبويه تجاه حنينه للاستيطان السفارادى القديم من العقد السابق (1987 وما بعده)"(1).

ويفسر "أبراهام بلفان " الأسباب التى جعلت والدى يهوشواع يزرعانه داخل المجتمع الإشكنازى فيقول: " لاشك أن علاقة يهوشواع بأبيه نبعت أيضاً من ذلك الوضع المتدنى الذى عاش فيه السفاراديم داخل المجتمع الإسرائيلى وثقافته. . . وتحول التوتر القائم بين الأب والابن إلى موضوع رئيسي فى إنتاجات يهوشواع. كما أن يهوشواع لم يتماثل مع أسرته، ولم يكن أبداً منتمياً لذلك العالم الإشكنازى"(2). وهو ما يؤكد عليه يهوشواع طوال الرواية على لســـان "مولخو" قائـــلاً: (إننى شرقى)(3).

وقد كشف يهوشواع فى هذه الرواية أيضاً عن ذلك الوضع المتدهور الذى يعيش فيه الإسرائيليون الشرقيون وعدم اهتمام الدولة بهم، وبدا هـــذا واضحاً فى الزيارة التى قام بها "مولخو "إلى منطقة (زروعا) بالجليل، وهى منطقة يعيش فيها يهود شرقيون ترجع أصولـهم إلى الـهند وتونس وجنوب أفريقيا، ويعمل أفرادها فى الزراعة، بينما يعمل نساؤها فى إصلاح الأحذية، وهو وضع لم يشعر به الإشكنازيم:

"أخذ "مولخو" يفكر فى داخلـه، إنهم بشر وكذلك إسرائيليون، تدحرجوا إلى هنا فى أقصـــى العالم، ونحن لا نشعر بهم، وحتى التليفزيون لا يظهرهم "(4).

وهكذا، يعكس لنا يهوشواع حقيقة المناطق التى يعيش بها اليهود الشرقيون فى إسرائيل، والإهمال الواضح من قبل الحكومة الإسرائيلية تجاه هذه الأماكن التى يعيشون بها وهى حقيقة يؤكد عليها شلومو بن عامى، الذى عاش هذه التجربة بنفسه فى أثناء هجرته مع أبويه فى الخمسينيات من المغرب إلى إسرائيل، حيث يقول: " . . وفى الطريق مررنا بكل تلك المستوطنات التى كانت قائمة فى مرج ابن عامر، وفى كل مرة كنا نقول لأنفسنا، ها قد وصلنا مؤكد هنا، مؤكد هنا فى هذا (الموشاف) الجميل، فى هذا الكيبوتس حيث كانت المرشات تروى العشب الأخضر. وعندها وصلنا إلى مكان، هو لا

(1) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيدمانى)، مرجع سابق، (ص7).
(2) نفس المرجع، (ص8).
(3) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، (ص28).
(4) نفس المرجع، (ص148).

مكان. هو لا شيء، معسكر من الخيام، كان يدعى (معبرات مانسى). لم يكن هناك صنابير للمياه. وقد أدرك الناس فوراً، أنهم ضللوا وأنهم كانوا ضحية عملية خداع، إذ إن أحداً لم يقل لنا إننا سنقيم هنا بخيام، فى شبه لا مكان كهذا. لقد كان إحساساً فظيعاً بالانكسار. وبكت النساء، وشرعن فى العويل كأنهن فى مأتم وقام بعضهن بمهاجمة أزواجهن، ضربنهم وصرخن فى وجوههم: إلى أين أتيتم بنا، إلى أين؟ كان المشهد يمزق القلوب. وببساطة أقول، إنه أمر كان مأساوياً " (1).

ويؤكد يهوشواع كذلك على تلك النظرة الفوقية التى ينظر بها اليهود الإشكنازيم تجاه السفاراديم، فالأعمال الحقيرة من نصيب السفاراديم فقط، فهم هنا فى إسرائيل لخدمة الإشكنازيم:

" لقد عثروا على شيال، قال "مولخو" فى نفسه، واختاروا حمالاً سفارادياً. وواصل مرارته بإحساس بالظلم غير ملموس، وانتبه إلى أن الروسية الصغيرة لم تبذل أى جهد لتأتى بالعربة " (2).

ولم يقف الوضع المتدهور لليهود السفاراديم داخل إسرائيل عند هذا الحد، بل تعدى الأمر إلى امتيازات أخرى يتمتع بها الإشكنازيم دون السفاراديم فى دولة ترفع شعار الصهيونية المشهور (بوتقة الصهر)؛ فيقول "مولخو" فى حديثه عن نفسه وعن مجتمع اليهود السفاراديم:

" إنه لم يحظ أبداً بمهمة خارج البلاد على حساب الدولة، اعترف بمرارة، إننا أيضاً لم نحظ بمثل هذا أبداً " (3).

ولم يكن بمقدور هؤلاء اليهود السفاراديم فعل شيء تجاه هذا الوضع سوى مسيرات الاحتجاج:

" لقد بدأ الإثيوبيون السود، ممن هاجروا منذ فترة ليست ببعيدة إلى إسرائيل، فى مسيرات احتجاج على طول الطرق الرئيسية " (4).

ومن هنا وقعت الصهيونية، كما حاول أن يؤكد يهوشواع، فى خطأ جسيم بتلك النظرة السطحية لهؤلاء اليهود الشرقيين، فقد كانت تنظر إليهم نظرة فوقية، وترى أنهم يفتقرون إلى أيديولوجية وأنهم خطر على الدولة، تماماً مثلما كانت تنظر زوجة "مولخو" إليه:

---

(1) آرى شفيط: لقاء مع عضو الكنيست شلومو بن عامى، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد 36، خريف 1998، (ص143).
(2) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص272).
(3) نفس المرجع، (ص68).
(4) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص186).

" لم تعر حديثه اهتماماً، وعدت ذلك دليلاً على افتقاره للأيديولوجية وعلى سذاجته السفارادية الخطيرة التى ستكون نهايتها كارثة سياسية "(1).

ويؤكد يهوشواع، على لسان "مولخو"، على أن الصهيونية أصابها العطب وأنها فى طريقها إلى الزوال، ليبقى فى النهاية العنصر الشرقى:

" إنها الآن تتعفن فى بطء، فهى فى طريقها للزوال. أما هو، وحيداً فكان يجلس جلسة شرقية مريحة فى أعماق الوادى أمام شلال رائع "(2).

وهكذا، يجسد " مولخو" تلك الفجوة العميقة بين الإشكنازيم والسفاراديم داخل المجتمع الإسرائيلى، التى لم تتوقف عند حد التمييز الطائفى، بل امتدت إلى كراهية الإشكنازيم للسفاراديم ؛ " إذ ينظرون إليهم باعتبارهم إسفين الحضارة العربية المتخلفة المزروع داخل المجتمع الإسرائيلى، ويرون أن هذا الأمر يهدد أساس الوجود الإسرائيلى كدولة تعد امتداداً طبيعياً للحضارة الغربية "(3).

" إن الفجوة بين اليهود الشرقيين والغربيين ليست طبقية اجتماعية بالمعنى المألوف، وإنما هى جزء من طبيعة المجتمع الصهيونى الاستيطاني الإحلالية، باعتباره مبنياً على اغتصاب الأرض، وطرد سكانها، واستيراد عنصر بشرى يهودى شرقى فقير، عليه أن يبقى كذلك حتى يظل قاعدة الـهرم، ولذا يمكن القول، إن أزمة اليهود الشرقيين هى عن حق، بؤرة الأزمة الأيديولوجية الصهيونية "(4) ودليل قاطع على تحطم بوتقة صهرها، وإخفاق جديد ينضم إلى قائمة إخفاقات الصهيونية على أرض الواقع.

ثالثاً: فشل الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل المؤسسين:

كان إخفاق الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل الآباء المؤسسين ليستكملوا المشوار، من الأمور التى اهتم بها بعض الأدباء الإسرائيليين، وأولوها اهتماماً كبيراً فى إنتاجاتهم الأدبية. لقد انتـــحى مشـروع المؤسسين جانباً وهجر ودمر على يد الأبناء، ومن هنا باءت محـــاولات الآباء المؤسسين بالفشل فى إعداد وريث يواصل الـهدف الصهيونى بنفس الحماس. وبالتالي، فإن (مرحلة النجاح) فى الاستيطان أعقبتها فى فترة متأخرة من سنـوات قيام الدولة (مرحلة الفشل).

ولم تكن مسألة فشل الصهيونية في إعداد ورثة لجيل المؤسسين محور اهتمام يهوشواع فى هذه الرواية، مثلما فعل ذلك بعض الأدباء الإسرائيليين، مثل عاموس عوز الذى خصص

(1) نفس المرجع، (ص166).
(2) نفس المرجع.
(3) د. رشاد عبدالله الشامى: الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية، مرجع سابق، (ص 9).
(4) د. عبدالوهاب المسيرى: الأيديولوجية الصهيونية، مرجع سابق، (ص 194).

روايته (صندوق أسود) بكاملـها لتلك القضية. لقد كان جل اهتمام يهوشواع منحصراً فى قضيتى الشتات والانفصال عن الصهيونية الكلاسيكية. إلا أنه لم يترك تلك القضية تماماً، بل تعرض لـها من خلال أبناء "مولخو"، ووصف حال ذلك الجيل ـ جيل الأبناء ـ بأوصاف سلبية للغاية. لقد قدمهم يهوشواع على أنـهم يمثلون جيلاً يفتقر إلى المسئولية والجلد، لا يعتمد على نفسه، ويستهتر بالأمور إلى حد الفشل فى الحياة الشخصية، فيقول يهوشواع على لسان القاص فى حديث طويل عن أبناء "مولخو" :

" لقد عادت الفتاة من رحلتها الصيفية لأوروبا ... وكانت أحياناً لا تعود إلى المنزل، حتى فى يوم السبت. أما ذلك الطالب (عومرى م.) فإنه بدأ يتجول مع امرأة تكبره بسنوات عديدة.. إنها امرأة سمينة ومتعبة.. طلقت منذ عشر سنوات "[1].

وهكذا تبدو " عانات " ابنة "مولخو" الكبيرة، و" عومرى" ابنه الأوسط فى حالة يرثى لـها، حتى إن "مولخو" يفكر فى علاج ابنه، ويطلب من ابنته الحديث معه فى ذلك الأمر :

" توسل إلى ابنته قائلاً، يجب أن نرسلـه للعلاج، تحدثى معه "[2].

ويمضى القاص فى الحديث عن أبناء "مولخو" الذين يمثلون جيل الأبناء، فيتحدث عن ابنه الصغير الذى يتخبط فى حياته ويفشل فى دراسته ويثير أعصاب مدرسيه فى مدرسته :

" فكر "مولخو" بعطف فى حال ابنه الصغير، الذى بعد تخبط كبير ومحادثات طويلة مع المدرسين والمدير تقرر إبقاؤه فى فرقته المدرسية... أومأ "مولخو" برأسه موافقاً وهو يقول، ليست هذه بكارثة "[3].

ويذكرنا ابن "مولخو" الصغير بشخصية "بوعز" فى رواية (صندوق أسود) لعاموس عوز، فقد كان بوعز شخصية فاشلة فى حياتها ؛ حيث ينتهج فى أسلوبه القوة والعنف فقط، ويعيش بعيداً عن أبويه، وقد هدد بالفصل من مدرسته عدة مرات بسبب عنفه وفشلـه فى الدراسة.

لقد كان ذلك الصبى مصدر قلق دائم لأبيه "مولخو"، فهو ينجح بالكاد فى دراسته :

" كان الابن الصغير مصدر قلق دائم لـهم. ففى السنوات الأخيرة، كان ينتقل بصعوبة من فرقة إلى أخرى. وقد تجاهل المدرسون إخفاقاته بسبب مرض أمه ووضعها فى المدرسة "[4].

---

(1) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص267ـ268).
(2) نفس المرجع، (ص268).
(3) نفس المرجع، (ص268).

ولم يتسم ذلك الجيـل بالفشل فقط، فهو أيضاً جيل متبلد العواطف، فعندما يذهب "مولخو" لابنه فى كليته، ليتحاور معه فى أمر أخيه الصغير الذى خرج فى رحلة دون أن يعرف إلى أين ذهب، وبدا الابن بارداً ومتبلد العواطف :

" لم يتأثر ذلك النحيف الطويل. إنه بالتأكيد مستقر فى ثمة مكان، لماذا أنت منزعج؟ " (1).

كما وصف يهوشواع ذلك الجيل بالاستهتار والخمول، فـ" جابى " الابن الصغير لـ" مولخو" يأكل من الوعاء مباشرة دون أن يضع مايريد فى طبق :

" انفعل "مولخو"، وجذب القدر منه وأحضر صحناً، ثم قال لـه لا تأكل هكذا من القدر مثل الحيوان " (2).

ويتسم ذلك الجيل كذلك بعدم المبالاة تجاه الآباء :

" غاص فى كرسيه ينظر إلى أبيه بعدم مبالاة " (3).

ويعتمد أبناء هذا الجيل أيضاً على الآبـاء فى كل شىء، ولا يعتمدون على أنفسهم مطلقاً؛ وعلى الرغم من ذلك فهم يرفضون سلطة الآباء :

" إنك تغير حركة الشبيبة دون أن تبلغنى، وتخرج مع أصدقاء جدد من مدرسة أخرى دون أن تخطرنى، هل تظن أن أبيك هو مجرد حارس دائم يجب أن ينتظرك دائماً ليفتح لك الباب، ويخبرك كم الساعة، وبعد ذلك تشتكى للجدة بأننى لا أعطيك مالا " (4).

وهكذا تبدو الفجوة عميقة بين الآباء و الأبناء، مما يشير إلى صعوبة إعداد ذلك الجيل كورثة لجيل الآباء. لقد أخطأت الصهيونية منذ البداية ولم تعط الفرصة لـهؤلاء الشباب فى الاعتماد على النفس ورسمت لـهم الطريق دون أن تسمح لـهم بالمشاركة فى اتخاذ القرارات، وكانت النتيجة أنه أصبح جيلاً لا يعتمد على نفسه، ولا يعرف الـهدف، جيلا مستهترا لا يحترم الآباء، ويتسم بالجفاء وعدم المبالاة.

ويرجع هذا الفشل فى إعداد هذا الجيل، إلى تشرذم المجتمع الإسرائيلى وعدم توحيد فئاته تجاه هدف واحد. فتعدد الأهداف والرؤى وتناحر الجماعات اليهودية المختلفة يؤدى إلى تشتت الفكر لدى النفسية الإسرائيلية، وبالتالي، فإن العلاقة بين الدولة وذلك الجيل

(1) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، ،(ص51).
(2) نفس المرجع (ص246).
(3) نفس المرجع، (ص254).
(4) نفس المرجع، (ص254).
(5) نفس المرجع، (ص254ـ255).

دائماً ما تصاب بفتور، لا سيما " أن إسرائيل تتكون من عدة أمم تتعدد فيها الأعراق والثقافات والاتجاهات الفكرية ؛ فبالإضافة إلى البنية التقليدية للمجتمع الإسرائيلى من عناصر السفارديم والإشكناز والصابرا والمهاجرين الجدد والعرب الفلسطينيين، تتزاحم الأيديولوجيات المختلفة، حيث ينقسم الإسرائيليون إلى يهود متشددين وقوميين ودينيين وتقليديين وعلمانيين وغير ذلك من الفئات ؛ وهو ما أدى إلى تشرذم المجتمع الإسرائيلى وتفتته إلىعدة ثقافات ولـهجات " (1). ومن هنا تكمن صعوبة إعداد ذلك الجيل ليكون وريثاً للأباء المؤسسين فى ظل كل هذه الصراعات الطائفية بين جموع اليهود، ويكمن الفشل الذريع للصهيونية فى إعداد جيل الورثة، فى أنها لم تحسن أدوات الإعداد، فقد كان همها الأكبر هو تجميع اليهود دون مراعاة لاختلاف الـهويات و الثقافات والأيديولوجيات. وهو ما جعل يهوشواع فى إطار تقويمه للصـهيونية ودعوته للانفصـال عنها، يقر بأن جيل الورثة لن يأتى إلا بعد عدة سنوات وليس الآن :

" تذكرها وهى تقف ممشوقة مثل علامة استفهام رقيقة، تحمل فى أنوثتها أعماق ذلك الولد الأخير الذى لم يولد منذ سنوات كثيرة " (2).

وهكذا، أكد يهوشواع على فشل الصهيونية فى إعداد ورثة لجيل الآباء كما كانت تحلم، وهى قضية اتفق عليها معظم الأدباء الإسرائيليين، مثل عاموس عوز الذى " أشار فى روايتيه (راحة صحيحة) 1982، و (صندوق أسود) 1987 إلى فشل الأيديولوجية الصهيونية فى إعداد ورثة من الأجيال التى أعقبت جيل المؤسسين، لكى يواصلوا الـهدف بنفس الحماس والإخلاص، حيث اهتمت هاتان الروايتان بمسألة الإرث ومشكلة المرشحين لـه الذين يتصفون فى المجتمع الإسرائيلى كورثة غير مؤهلين لـهذا الميراث " (3).

رابعاً : الانفصال عن الصهيونية والبحث عن بديل جديد :

لقد تكونت مبادئ الصهيونية فى الغرب وأسسها، وكانت مسألة قيام دولة يهودية فى الشرق فى طليعة أهدافها. وبعد قيام الدولة ظن مؤسسو الصهيونية أنهم يسيرون بخطى ثابتة وناجحة، ولكنهم سرعان ما اصطدموا بالواقع، واقع الأرض الشرقية وماعليها من بشر. وهنا بدأت حسابات الصهيونية تتهاوى، وكانت حرب 1948 هى الخط الفاصل ما بين رؤى الصهيونية وسـبل تحقيقها. وتمضى السنون لتخوض إسرائيل حرباً بعد حرب مع

(1) د. محمد خليفة حسن : الشخصية الإسرائيلية واتجاهاتها نحو السلام، صحيفة الأهرام، 11-6-1997.
(2) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، (ص255).
(3) يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص17).

جيرانها العرب، وتسقط مع هذه الحروب أقنعة الصهيونية لتكشف لنا عن أيديولوجية عقيمة تكونت فى الغرب لتبدأ فى الشرق، وهى أبعد ما تكون عن الزمان والمكان.

ومع تفاقم المشكلات الداخلية والخارجية لإسرائيل كدولة، واخفاق الصهيونية فى تحقيق أهدافها المختلفة مثل: تراجع معدلات الـهجرة، وفشل دمج الشتات فى إسرائيل، وتحطم بوتقة الصهر، والفشل فى إعداد جيل ورثة للمؤسسين، وتشرذم المجتمع الإسرائيلى، بدأ الأدباء الإسرائيليون فى عملية مراجعة دقيقة وشاملة لنجاحات الصهيونية وإخفاقاتها، وبلغت موجة نقد الصهيونية ذروتها مع تلويح يهوشواع بحل التحرر من هذه الأيديولوجية الكلاسيكية التى لم تتوافق أفكارها مع أفعالـها، وتبتعد تماماً عن الواقع المعاش.

ولم يقترح يهوشواع حل الانفصال فحسب، بل حاول تصور البديل الجديد. وبسبب إيمانه بالطبيعية والخضوع للمكان والزمان، ذلك المكان الذى توجد فيه الدولة، فقد حاول البحث عن أيديولوجية ذات هوية جديدة تخضع للمكان والزمان؛ أيديولوجية بديلة تضع فى اعتبارها معطيات الواقع وفرضياته.

وعن فكرة الانفصال هذه لدى يهوشواع، يقول يوسف أورن: " تلـهو روايات يهوشواع بفكرة الانفصال عن الأسس التى لم تنجح فى العيش بنجاح، حيث يكمن الحل فى الفصل ما بين الأيديولوجية والحياة حتى تتمكن الدولة من القيادة طبقاً للإمكانيات الواقعية الماثلة أمامها، وذلك بعد أن ثبت ـ وتعتبر الحروب الدورية دليلاً على ذلك ـ فشل جهودها فى العيش طبقاً لتحكمات الأيديولوجية الصهيونية. ولذا يجب أن نستبدل بالأيديولوجية الغربية القديمة أيديولوجية وليدة تخضع للبيئة والزمـان والمكان، وتدير الحياة طبقاً للاحتمالات القائمة بالفـعل. وهذا ما يعرض فى رواية (مولخو) من خلال الطفلة القيادية الثورية العذراء، التى يقسم لـها "مولخو" على الإخلاص ويؤكد لـها أنه سينتظرها حتى تنضج أنوثتها ويحبها، لكى ينجب منـها أطفالاً طبيعيين" (1).

وقد عبر يهوشواع فى هذه الرواية عن حل الانفصال والبحث عن بديل من خلال أربع جولات نسائية قام بها "مولخو" طوال الرواية بعد وفاة زوجته ذات الأصول الصهيونية الغربية بهدف البحث عن بديل جديد لزوجته (الصهيونية الغربية)، وباءت الجولات الثلاث الأولى مع النساء الغربيات كلـها بالفشل، ولم تنجح إلا الجولة النسائية الرابعة مع طفلة مستوطنة " زروعا " بالجليل، تلك الطفلة الشرقية التى تبلغ من العمر 11عاماً، أو

(1) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص19).

بالأحرى تلك الأيديولوجية الشرقية الجديدة التى تخضع للمكان (البيئة) والزمان (بعد رحيل الصهيونية الغربية).

وعلى الرغم من علم يهوشـواع منذ البداية بصـعوبة التأقلم بين العقـلية الإشكنازية (النساء الثلاث) و"مولخو" باعتباره سفارادياً، فإنه حاول التأكيد على أن البديل لن يكون أبدا غربياً، لا سيما أن "مولخو" قد تحرر بصعوبة بالغة من القيود الغربية التى فرضتها عليه زوجته الإشكنازية ولم يعد بمقدوره احتمالـها مرة أخرى، فاتجه نحو الشرق، واقع بيئته الأصلية التى عاش فيها ومازال.

ويمكن لنا أن نتبين الأيديولوجية الجديدة التى حاول أن يبحث عنها يهوشواع من خلال هذين المحورين:

(1) تحقق الانفصال عن الصهيونية الكلاسيكية:

كانت مرحلتا الخضـوع والتحرر التى مر بهما "مولخو" خلال أحداث الرواية، وتحدثنا عنهما سابقاً، هما تمهيد للانفصال التام عن زوجته، وعلى الرغم من خضوع "مولخو" فى البداية لقيود زوجته وحبه الكبير لـها حتى بعد مماتها، فإنه حاول الانفصال عنها ونجح فى ذلك كما يقول أورن: " فما دام من المستحيل أن ندير الدولة طبقاً لوصايا الصهيونية غير الواقعية التى لا تتناسب مع الزمان والمكان، فمن الضرورى أن ننفصل عنها مثلما ننفصل عن إنسان توفى على الرغم من أنه قام بدور مهم فى حياتك خلال فترة زمنية معينة، وكنت تحبه وتحتاج إليه خلال تلك الفترة الزمنية. وبإسم الحياة المستمرة فعلى من يواصل الحياة ويتطلع إليها بالارتشاف منها كما ينبغى أن يقّوم حياته من خلال حب جديد لأيديولوجية جديدة "(1).

ولم تكن تلك الرواية هى الأولى التى تحدث فيها يهوشواع عن حل الانفصال لوضع معوج مثل هذا. " فقد كانت جهود الانفصال بين الزوجين، التى حولت حياتهما المشتركة إلى كابوس وجعلتهما غير متزنين، موضـــوعاً مشتركاً لروايات أ.ب. يهوشـــواع الثلاثـــة: (العاشـــق) 1977، و(طـلاق متأخر) 1982، و(مولخو)1987. وبكتابة تلك الروايات الثلاث أكمل يهوشواع الثلاثية التى تمخض عنها، رويداً رويداً، ذلك الاستنتاج بأنه عندما يكون الوضع على هذا النحو فيجب علينا

(1)يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص28).

أن نفصل بين الزوجين قبل أن تحدث كارثة تنعكس أضرارها عليهما وعلى أبنائهما " (1).

ولم يأت حل الانفصال لدى يهوشواع من فراغ، بل رأى أن الصهيونية لم تحقق ما كانت تطمح إليه، ولم تتحقق بعد:

" وأضاف قائلاً، إن امرأة مستقيمة كهذه تبدو، انتقادية للغاية، حتى تجاه نفسها... ولكنها بشكل عام، ليست سعيدة، لأن شخصية مثقفة مثلها، كان من الصعوبة بمكان إشباع رغبتها، حيث لم تستطع تحقيق ذاتها " (2).

ويتفق هذا مع موقف يهوشواع المباشر من الصهيونية، فهو يقول: " لدىّ رغبة فى تقليل حدود الصهيونية داخل حياتنا، وبمفهوم أيديولوجى أيضاً، فإن ذلك ليس لأننى لا أرغب فى رؤية ما ليس فى الصهيونية. فالصهيونية لم تقف ضدى كقضية يجب أن أحسمها فى ذلك العصر: أى أن أكون صهيونياً أو لا أكون، بل هى حدث تاريخى. إننى أتعامل مع الصهيونية مثل إنسان فرنسى يتحدث عن عصر (نابليون)، وأنظر إلى ما فيها من ضرورات وشرعية فقط، وكيف انتهى كل هذا دون أن يؤثر فى الواقع الذى نعيشه فى ذلك العصر " (3).

وهكذا، حاول يهوشواع من خلال "مولخو" الانفصال عن زوجته التى تمثل الصهيونية الكلاسيكية فى الرواية بعد نقده السلبى لها. وقد تعددت مظاهر الانفصال فى الرواية، فها هو يتخلص من كومة الأدوية التى تكونت لديه خلال سنوات مرضها، ويحاول بيعها، فهو لا يريد أن تذكره تلك الأشياء بها:

" مازال يحاول التخلص من كومة الأدوية، التى كدرت عليه حياته " (4).

كما أنه قرر خلع خاتم الزواج من إصبعه ليتحقق الانفصال التام، وعلى الرغم من صعوبة خلع الخاتم من إصبعه، فإنه ينجح فى النهاية بمساعدة أمه، فقد اتفق الجميع على حل الانفصال:

" عادت أمه مرة أخرى إلى موضوع خاتم الزواج، فقال لها: ليكن كذلك، وحاول خلعه ولكنه لم ينجح ؛ لأن إصبعه سمن للغاية بعد مرور تلك السنوات الكثيرة، فأحضرت أمه الصابون، ورويداً رويداً وبألم خفيف خلعوه من إصبعه " (5).

---

(1) نفس المرجع (ص27).
(2) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص126).
(3) ايهود بن عيزر: " إين شأنانيم بتسيون، سيحوت عل محير هاتسيونوت "(أحاديث حول مردود الصهيونية)، مرجع سابق، (ص97).
(4) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص57).
(5) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص62).

وهكذا، حاول يهوشواع أن يبين لنا مدى صعوبة الانفصال، بالإشارة إلى إصبعه الذى سمن، فقد كانت الدولة تعتمد على الصهيونية فى خطواتها، وتحقق معدلات برامجها الموضوعة، ويصعب عليها الانفصال بسهولة، ولكنه يؤكد على ضرورة الانفصال بنجاح "مولخو" وأمه فى المحاولة، على الرغم من تفكيره فى المستقبل بعد الانفصال وعيشه بدون أيديولوجية، بعد أن تركت الزوجة المتوفاة وراءها الكثير من المشكلات والصعوبات:

" كان هو الوحيد الذى شعر بالحزّ الأبيض الذى بقى فى إصبعه بعد خلع الخاتم، فالطريق طويل وصعب. . . والظلام يزيد الصمت عمقاً " (1).

ويرى الناقد الإسرائيلى أبراهام بلفان، أنه من الطبيعى أن تكون مسألة الانفصال هى الحل الوحيد، لاسيما أن العلاقة التى تجمع بين "مولخو" وزوجته تتسم بالتوتر الدائم، فهى علاقة تجمع بين نقيضين، حيث يقول: " كان "مولخو" يمثل النقيض المطلق لزوجته الغربية. فهو إنسان بسيط غير مثقف تحكمه عدة أفكار بدائية وحياتية، ومازال مرتبطا بالطبيعة. أما زوجته، فى مقابل هذا، فهى شخصية مثقفة، تتميز بعدم وجود علاقة بينها وبين الطبيعة. . . ومن هنا، فأمامنا نموذج إسرائيلى يمثل المواجهة ما بين الطبيعة والحضارة الغربية. فالحضارة، فيما يتعلق بذلك، تمثل هنا الانقطاع عن الجذور، بعكس الطبيعة التى تمثل الارتباط بالجذور. ولكن "مولخو" السفارادى مرتبط ارتباطاً قوياً بجذوره، فلكى يكون جزءاً من زوجته، فعليه أن يتخلى عن جذوره واستقلاليته. ويتضح هنا أن "مولخو" هو النقيض القطبى لزوجته التى تمثل الصهيونية الغربية، حتى وإن كان يقبلها " (2).

ومن هنا كان إدراك "مولخو" لضرورة الانفصال على الرغم من الطريق الصعب فى البحث عن أيديولوجية جديدة، وعلى الرغم من الإخلاص الطويل لها وتحمله فوق طاقته، فقد آن أوان التفكير فى المستقبل، مستقبل أبنائه وأمه الشرقية:

" إننى مضطر عند هذا الحد للتوقوف. لقد فعلت ما هو فوق طاقتى، واهتممت بها مخلصاً حتى توفيت، وإن كانت مازالت تجذبنى نحوها بعد الموت، فإننى يجب الآن أن أحافظ على نفسى. فلدىّ أبناء ما زالوا فى حاجة إلىّ، وأم عجوز فى القدس " (3).

لقد أقر الجميع أنه آن الأوان لتوديع الصهيونية وضرورة رحيلها، بعد أن قامت بدورها ولم تعد الدولة فى حاجة إليها، حتى إن أمر رحيلها أو موتها أصبح معروفاً لدى الجميع،

---

(1) نفس المرجع، (ص62).

(2) أبراهام بلفان: " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص90).

(3) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص331).

جموع اليهود فى العالم، ففى خارج إسرائيل عندما يخبر "مولخو" أم أحد موظفى السفارة بموت زوجته يكتشف أنها تعرف الخبر، على الرغم من عدم معرفته بها من قبل:

"لقد فقدت أنا أيضاً زوجتى منذ عام تقريباً، ولكن الذى أثار دهشته هو أن العجوز كانت تعرف الخبر بالفعل، و كأن الحقيقة مكتـــــوبة على جبهته" (1).

وهكذا، أمكن تحقيق الانفصال التام عن الصهيونية الكلاسيكية المتمثلة فى الزوجة المتوفاة زوجة "مولخو". ولم يكتمل ذلك الانفصال إلا بالبعد كذلك عن العقليات الإشكنازية الأخرى المتمثلة فى النساء الإشكنازيات الثلاث اللاتى التقى بهن "مولخو" عد وفاة زوجته. فقد حاول يهوشواع التأكيد على صعوبة التوفيق بين عقليتين مختلفتين " فالتقى "مولخو" أول ما التقى بـ "مريم"، تلك المستشارة القضائية، وكان تشابهها الكبير مع زوجته الزوجة المتوفاة سبباً رئيسياً فى ابتعاده عنها: " فقد كانت تعشق الموسيقى وتتمتع بعقل مفكر، وهى شخصية قيادية متطلعة، تحـرص على النظافة، وتشبههـا أيضاً كما يـرى، فى أنها مريضة " (2).

وبالتالي، " كان على سفـــارادى قـــديم مثلـه أن يبتعد عن تلك المرأة التى تشبه الزوجة المتوفاة " (3).

وتحقق الانفصال كذلك مع " يعراه" حبيبة الصبا، التى التقى بها فى القدس مع زوجها الرجل الدينى، واصطحبها إلى حيفا ليقضى معها عدة أيام على أمل الانفصال عن زوجها، إلا أن زوجها يعود ليأخذها معه عائداً إلى القدس:

" لقد أدرك "مولخو" أنه منذ الآن لن يستطيعوا فرض مثل هذه الأيديولوجيات عليه، واعترف أنه، فى النهاية، تحرر من الخضوع لسحر زوجته ذات العقلية الغربية، وتعلم اختيار الحياة كهدف بدلاً منها " (4).

وقد اكتمل الانفصال فى تلك المهمة التى قام بها طواعية، وهى مهمة إعادة "نينا" الفتاة الروسية إلى وطنها. ويقول أورن عن تلك المهمة واكتمال الانفصال بها: "لم يكن لـهذه المهمة الغريبة أى تفسير واقعى فى حبكة الرواية، ولكنها توضح لنا جيداً فى مجريات أحداث القصة، قصة الانفصال بين "مولخو" (الانفصـــال المادى والشـرقى) والزوجة المتوفاة (العقلية الغربية) كمثال للحاجة إلى الانفصال بين الدولة التى تقع فى الشرق

(1) نفس المرجع، (ص300).
(2) نفس المرجع، (ص60).
(3) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق (ص33).
(4) نفس المرجع، (ص37).

الأوسط فى القرن الحالي وبين الأيديولوجية الصهيونية التى تعودت على أرض أوروبا فى نهاية القرن التاسع عشر. وتلقى الرواية الضوء على التشابه بين "نينا" وزوجة "مولخو" المتوفاة، وعندما يقوم "مولخو" بإعادة "نينا" إلى المكان الذى وصلت منه، فهو فى الواقع يعيد بشكل رمزى الطفلة التى وصلت إليه فى القدس، إلى المكان التى ولدت فيه. وبذلك اكتمل الانفصال بين دولة إسرائيل التى يجب أن تعيش طبقاً للظروف الفعلية فى الشرق الأوسط اليوم والأيديولوجية الصهيونية التى صيغ برنامجها بعيداً عن ا لزمان والمكان "(1).

وهكذا، يمكن القول، إن التحرر من قيود الزوجة المتوفاة، ثم الانفصال عنها، والتأكيد على هذا الانفصال من خلال علاقته بهؤلاء النساء الإشكنازيات الثلاث، هو بمثابة التمهيد الإيجابي للبحث عن البديل، أو بالأحرى البحث عن أيديولوجية جديدة، وقد نجح يهوشواع فى التعبير عن ذلك، إلى حد كبير.

(2) البحث عن بديل من خلال الاتجاه نحو الشرق:

اتجه يهوشواع فى بحثه عن أيديولوجية جديدة كبديل للصهيونية الغربية ناحية الشرق، ونجح فى تحريك الشخصية الرئيسية فى الرواية نحو هذا الاتجاه، بعد أن حقق الانفصال بشكل سليم ومقنع، وبدت أمامنا معالم أيديولوجية جديدة لم تتبلور بعد، ولكنها تمتزج بفضل الطبيعية التى تحدث عنها يهوشواع.

" لقد أدرك يهوشواع الخاصية الطبيعية لدولة إسرائيل: وهى أنها تحل مشاكلـها طبقاً لإمكانياتها المتواضعة بدلاً من حلـها وفقاً لادعاءات الأيديولوجية غير الواقعية، التى لا يمكن تحقيقها. فالرواية تدعو إلى صهيونية أخرى، صهيونية تتوافق مع الحياة وتمتزج بالطبيعة الشرقية التى امتزجت بها الدولة. ومن أجل إمكانية الحياة يبقى أيضاً التخلص من الأيديولوجية التى أصابتها الشيخوخة، على الرغم من أفضالـها الكبيرة، وعلى الرغم من الفكرة التى فجرت ثورة الإحياء القومى لمدة مائة عام وكونت دولة "(2).

وكان البديل الذى بحث عنه "مولخو" طوال الرواية يكمن فى طفلة مستوطنة "زروعا" بالجليل، تلك الطفلة الشرقية التى تبلغ من العمر أحد عشر عاماً، و "هى طفلة ذات أصول هندية، طفــلة (أو من الأفضل أن نقـول أيديولوجية) ذات عقلية مناسبة - العقلية

(1) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص31ـ32).
(2) نفس المرجع، (ص38).

الشرقية " [1]. لقد عمل بالنصيحة التى أسندتها لـه أمه باعتبارها امرأة شرقية مثلـه وهى ضرورة البحث عن بديل مناسب لـه :

" لم تتخل أمه عنه، وقالت لـه، فلتحاول العودة إلى القدس، فلديك هناك عدد من أصدقائك قد يساعدونك على إيجاد زوجة مناسبة، زوجة ذات عقلية مناسبة لك " [2].

كما كانت أوصاف تلك الطفلة، كما قدمها، يهوشواع تتناقض تماماً مع أوصاف زوجته السابقة ذات العقلية الغربية، فهى جميلة ورقيقة وقوية :

" أخذ ينظر إلى ساقيها الممشوقتين الرقيقتين الطويلتين . . . ولم يستطع "مولخو" أن يبعد نظره عن ذلك الجسد الصغير فى ملابس الرقص السوداء . . . وقد جذبته تلك النظارة الكبيرة ذات الإطار الحديدى الأحمر الموضوعة على الوجه العاجى " [3].

ويرى الناقد الإسرائيلى بلفان، أن " ذهاب "مولخو" إلى برلين كان فى الشتاء، بمصاحبة المطر لـه فى رحلته من باريس إلى برلين، كل هذا يشير إلى التجمـد الذى أصاب "مولخو" لفترة طويلة، وقد أذيب هذا التجمد فى الربيع عندما ذهب إلـى مستوطنة (زروعا) والتقى بتلك الطفلة الـهندية الصغيرة، التى شعر بها كامرأة مثالية لم تكن غريبة عنه، فنام فى سريرها عدة مرات، وتطلع إليها وتحقق من أنها واقعية وحقيقية " [4].

وكان فى كل مرة يلتقى بهذه الطفلة، يطالعنا بأوصاف جديدة لم نجدها قط فى النساء الثلاث اللاتى التقى بهن طوال الرواية بعد موت زوجته، وهو ما يشير إلى إعجابه بها كنقيض تام لزوجته الغربية وللنساء الثلاث الغربيات :

"لقد خلبت تلك الطفلة التى تنصت إليه لبه، إنها ممشوقة القد هى الأخرى، منبسطة الصدر كلوح خشبى . . . وأخذ يفكر، هل هذه الطفلة مختلفة تماماً، أم أننى ربما لم أر أطفالا منذ فترة بعيدة . . . وأخذ ينظر إلى وجهها البريء الجاد . . . وإلى ساقيها الممشوقتين مثل عيدان الكبريت " [5].

---

(1) يوسف أورن : " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص31).

(2) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، (ص61).

(3) نفس المرجع، (ص147ـ148).

(4) أبراهام بلفان : " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص107).

(5) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو " ، رواية، مرجع سابق، (ص149ـ163:164).

أما الناقد الإسرائيلى يوسف أورن، فإنه ينظر إلى تلك الطفلة على أنها بديل جديد لم يقابلـه إلا مصادفة فى فصل الربيع، حيث يقول: " صادف "مولخو" فى طريقه بديلاً آخر لزوجته، وقد تراءى هذا البديل أمامه فى فصل الربيع، عندما التقى بالصدفة مع الطفلة الـهندية فى مستوطنة " زروعا " بالجليل. . . وهى طفلـه قوية وقيادية وصاحبة قرار. وبذلك ينتهى التشابه الذى جمع بين النساء الثلاث الأخريات وبينها، حيث إن الطفلة التى تبلغ من العمر أحد عشر عاماً، تختلف عن الزوجة المتوفاة فى عقليتها، كما أن جلدها فى لون سن الفيل وعيناها سوداوان. إن تلك الطفلة الشرقية هى وريثة الزوجة المتوفاة الغربية. وتلتصق بأوصافها رموز عكسية: حيث تضع نظارة كبيرة على وجهها. . . إن هذه الطفلة الملكة هى ملكة شرقية ستصبح أماً لأبناء "مولخو" الجدد. وسوف تنمو كأيديولوجية وليدة البيئة والزمان. وبشكل رمزى يرتبط "مولخو": فقد كان ينام على سريرها، وفى الليل كان يمشى حـــافياً فى الظلام ليمسك نظارتها بحرص ويدقق فيها ويفحصها ثم يضعها على المنضدة " (1).

لقد بات من المؤكد أن هذه الطفلة أصبحت تمثل معنى جديداً فى حياة "مولخو" وجده بعد رحلة البحث عن أيديولوجية جديدة، أيديولوجية المكان والزمان، وأصبح وصفه لـها فى كل لقاء يجمع بينهما بمثابة إشارة واضحة إلى أنه استطاع بعد جهود مضنية، الحصول على البديل المناسب لـه، واهو بديل مختلف تماماً، أعلن حبه وارتباطه به:

" لقد مرت علىّ سنوات قاسية وأنا صامت، و الآن يجب أن آخذ حذرى، فمنذ عدة شهـــور كدت أقع فى غرام طفلة صغيرة فى بلدة صغيرة بالجليل، مجرد طفلة صغيرة جداً، سوداء، طفلة هندية مختلفة تماماً " (2).

وهكذا، يعلن يهوشواع على لسان "مولخو" اتجاهه ناحية الشرق وحبه لتلك الطفلة الشرقية الصغيرة كأيديولوجية أو بديل جديد يحل محل الأيديولوجية القديمة التى وهنت ورحلت بعد صراع طويل مع المرض. وهو ما يبدو فى تفسير " عانار شاليف " لـذلك الحب الجديد: " إن حبه للطفلة الـهندية يعطى لنـا صورة مختلفة تماماً. لقد أثارته تلك الطفلة السوداء بفاعليتها وهمتها، ارتبط بها وتحرى سر جاذبيتها، ولم يدفعه أحد تجاهها، فى الوقت الذى لم يكن مهيأ للارتباط بها، فهو ببساطة شديدة يريد ذلك ... ففى رحلاته إلى تلك المستوطنة البعيدة وحبه للطفلة وملاحقته لـ " بن يعيش " (المسئول المالى عن المستوطنة) والمساعدة غير المتوقعة التى أولاها لـه وعرضته للخطر القضائى، كل هذا خلق إحساساً بالمبادرة والارتباط بالواقع الذى برز غيابه خلال الفترة السابقة من حياته. إنه

(1) يوسف أورن: " هاتسيونوت وهاتسباريوت بارومان هايسرائيلى " (الصهيونية والصبارية فى الرواية الإسرائيلية)، مرجع سابق، (ص34).
(2) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص200).

واقع طفولته السفارادية بالقدس، واقع البلاد البعيدة الغريبة، واقع الوادى أمام بيته، الواقع الذى ابتعد عنه طوال ثلاثين سنة هى عمر زواجه " (1). ذلك الواقع الذى برز " فى تلك الشخصية الوحيدة التى أثارت شهوته، وأحبته بعد عام كامل من الحداد " (2)، وارتبط بها لأنها شرقية مثلـه.

وعـن معنى ذلك الـــــوادى، الذى أحاط ببيت "مولخو"، والوادى الذى وجده فى (زروعا) يقول أبراهام بلفان : " هناك ضرورة لأن نستوضح الاختلاف ما بين الوادى الذى وجـــده "مولخو" فى (زروعا) وبين الوادى الذى يقع بالقرب من بيته. ففى مقابل الوادى المظلم الذى اختفت فيه زوجته بموتها، وفى مقابل السرداب المظلم الذى التقى فيه "مولخو"، بالمستشارة القانونية "مريم"، كان الوادى فى منطقة (زروعا) يضج بالحياة والنور. لقد كان أول وصف لـهذا الوادى فى تلك الرواية، يشير إلى الإحساس بالنضارة والحيوية " (3).

وعلى الرغم من ذلك، كان "مولخو" يدرك تماماً أن عليه الانتظـــار حتى تكبر الفتاة وتنضج ؛ ولكنه " حلف لزوجته المستقبلية قسم الإخلاص والولاء " (4) :

" لقد أحببت تلك الطفلة السوداء، ويبدو أن علىّ الانتظار سبع سنوات حتى تنضج من أجلى " (5).

إنه كان على علم تماماً بالمستقبل الذى ينتظرها، فدمعت عيناه ونظر إليها فى عطف كبير وأكد أنه لن ينساها :

" عرف بوضوح أن هناك أياماً صعبة فى انتظارها. ولم يكن باستطاعته أن يتمالك نفسه، فترقرت الدموع فى عينيه، وانحنى عليها وأخذ يحتضنها ويقبلـها قائلاً لـها : إنك طفلة ممتازة، ولن أنساك " (6).

ويمكن القول أيضاً، إن اتجاه يهوشواع فى بحثه عن أيديولوجية جديدة كبديل للصهيونية الغربية كان واضحاً تماماً فى أوصافه للممرضات الشرقيات فى المستشفى فى أثناء مرض أم

---

(1) عانار شاليف : " مولخو أوو شقيعات هامعراف " (مولخو أو غروب الغرب)، مجلة سيمان قريئاه، العدد 20 للمحرر مناحم بيرى، 20 مايو 1990، (ص469ـ470).
(2) أبراهام بلفان : " مار مولخو، عيون برومانيم شل يهوشواع، مولخو أومار مانى " (السيد مولخو، دراسة لروايات مولخو والسيد مانى)، مرجع سابق، (ص91).
(3) نفس المرجع، (ص108).
(4) نفس المرجع، (ص35).
(5) أبراهام بيت يهوشواع : " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص156).
(6) نفس المرجع، (ص176).

زوجته، وقد جاءت أوصافهن لتتناقض تماماً مع أوصاف النساء الغربيات، ولتؤكد على مفهوم الطبيعية التى تحدث عنها يهوشواع فى كتاباته:

" فى منتصف الليل، ووسط إغفاءة خفيفة، سمعت أصوات ضحك خافت، وجاءت ممرضتان جديدتان ؛ لاستبدال المناوبة الليلية. كانتا على مايبدو ممرضتين متعلمتين بملابسهن الزرقاء المكوية وغطاءات الرأس البيضاء. لقد جاءتا بنفحة من الحيوية لذلك القسم الصامت "(1).

ويستمر "مولخو" فى تلك الأوصاف كلما التقى بممرضة شرقية:

" وسمع من وراء الحائط همس الممرضات الجديدات، وما يحدثن من ضجيج صوتى، ولكنهن رائعات للغاية، وبخاصة إحداهن التى بدت لـ"مولخو" نضرة للغاية، شعرها أسود، وجلد بشرتها ناعم، وعيناها السوداوان تبرقان بنظرة حادة ... إنها بدون شك من أصل شرقي. . . هؤلاء الفتيات تطورن إلى هذا الحد وصرن جميلات فى السنوات الماضية "(2).

وهكذا، " كان طاقـم الممرضات الذى اعتنى بالعجوز أم الزوجة المتوفاة من الممرضات الشرقيات، التى تبدو إحداهن فتاة عربية (ناضرة للغاية، عيناها سوداوان، ذات نظـرة حادة). ولعلنا نلاحظ أن التفتح والرقة والحرارة صفات لم تكن فى النساء الغربيات "(3).

ولعلنا نلاحظ أيضاً ميل "مولخو" منذ البداية للعنصر الشرقى، فعلى الرغم من أن تلك الأوصاف جاءت فى نهاية الرواية بعد رحلة بحث شاقة تصور مولخو بعدها إمكانية البديل الشرقى الجديد، فإنه كان يفكر فى هذا منذ بداية الرواية، وهو ما يتضح فى وصفه للممرضة الشرقية التى كانت تعتنى بزوجته قبل وفاتها، فقد تنبأ "مولخو" بأنها ستكون جسراً لشيء ما فى المستقبل:

" أخذت تحملق فيه بعينيها السوداوين الشرقيتين. . . وظن "مولخو "للحظة، أنها ربما ستكون جسراً لشيء ما لم يتضح لـه بعد "(4).

وهكذا، كان الشرق منذ البداية محط أنظار "مولخو"، بوصفه ابن المكان والبيئة، وكان توجههه إليه بعد أن جرّب العلاقة مع الغرب وثقافاته، وبعد أن بات من المؤكد صعوبة

(1) نفس المرجع، (ص342).
(2) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص342ـ343).
(3) عانار شاليف: " مولخو أوو شقيعات هامعراف " (مولخو أو غروب الغرب)، مرجع سابق، (ص38).
(4) أبراهام بيت يهوشواع: " مولخو "، رواية، مرجع سابق، (ص470).

التجربة وفشلـها، وبدا لـه وكأنه يعرف الآن الطريق والبديل الجديد لتلك الأيديولوجية الغربية التى عفا عليـها الزمن، وأنه آن أوان تشييعها إلى مثواها الأخير؛ بعد أن أدت دورها فى حينه. لقد تكهن يهوشواع البديل، وعرف من أين تشرق الشمس، وهو أمر واضح فى دعـــوته على لسان "مولخو" للممرضات الشرقيات لتحريك سرير العجوز أم الزوجة المتوفاة فى اتجاه النور المتوقع أن يجئ من الشـــرق، وهو أمر واضح كذلك فى إعلانه لانتهاء الأفضلية الأوربية:

" كان يعرف جيداً من أين تأتى الشمس، فهو ابن المكان... لقد انتهت الأفضلية الأوربية وكأنها لم تكن "(1).

ولعلنا نلاحظ أن الرواية تبدأ بالموت (موت زوجة "مولخو")، وتنتهى كذلك بالمـوت (احتضار أم الزوجة المتوفاة)، والموت هنا يرتبط بأسرة الزوجة الغربية (بدءاً من الانتحار القديم لرب الأسرة فى برلين)، بينما "مولخو" وأمه يظلان على قيد الحياة. " وبذلك تتزعزع علاقات القوى الثقافية. فبالنسبة للغـــرب هناك ثمة انهيار، أما الشـــرق فما زالت هناك طاقة من الأمل مفتوحة أمامه "(2). لقد وجه يهوشواع الأنظار ناحية الشرق الذى يقبع فيه الأمل، ولعلنا نلاحظ ايضاً أن الرواية تنقسم إلى فصول السنة، ويظهر الخريف مرتين فى حيفا، والشتاء فى أوروبا، أما الربيع فيظهر فى منطقة " زروعا " مدينة المهاجرين الشرقيين بالجليل. وقد جعلت صيحات يهوشواع للشرق النقاد فى حيرة من مقصد هذه الرواية الحافلة بالرموز والاستنتاجات، التى أعلنت وفاة الصهيونية ورحيلـها فى زمن لم يعد هناك احتياج إليها فى مكان ضاق بها، حيث جعلت " شاليف " يضع علامات استفهام عديدة حولـها: " بماذا يتنبأ يهوشواع بالضبط؟ هل يتنبأ بإحياء فلكلور غريب؟ أم بانتفاضة لليهود الشرقيين؟ أم بنهضة دينية أو قومية؟ أم ببوتقة كنعانية لكلا الشعبين؟ وبخاصة أنه لا يوجد فصل حقيقى بين العرب واليهود الشرقيين طوال الرواية "(3).

---

(1) نفس المرجع، (ص344).

(2) عانار شاليف: " مولخو أوو شقيعات هامعراف" (مولخو أو غروب الغرب)، مرجع سابق (ص470).

(3) نفس المرجع (ص471).